علاء محمد عبدالناصر

العمـــــــدة

رواية

obeikan.com

الكتـــــــاب: العمدة

المـــؤلـــــف: علاء محمد عبدالناصر

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 3637 / 2017

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 158 - 8

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

علاء محمد عبدالناصر

العمــــــــدة

رواية

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

obeikan.com

obeikan.com

لا تصدق أن الإنسان ينمو.. لا.. إنه يولد فجأة، كلمة ما في لحظة تشق صدره على نبض جديد، مشهد واحد يطوح به من سقف الطفولة إلى وعر الطريق

غسان كنفاني – كاتب فلسطيني

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

القاهرة – حي المعادي ٢٠١٤م

الذاكرة لا ترحم ..

تظل ذكرياته رغم محاولاته الدءوبة للنسيان تطارده من حين لآخر، لم يعد مع كثرتها وتزاحمها هي وأحلامه أن يميز بين الواقع والذكرى والحلم، يقف أمام الصور وعلى أعتابها يفكر في ذلك الماضي البعيد، أغلب الصور أحيطت بإطار جانبي أسود، الموتى على هذا الجدار أكثر من الأحياء، كلهم في صورهم يبتسمون، كأنهم يعرفون الطريق جيدا للعالم الآخر ويتركونه هو لوحدته تُعتق فيها آلامه جيدا ثم يعصرها قلبه، فتنزف عنه جراح السنين وينهار الركام كله فوق رأسه، فيبحث جاهدا في ثنايا الحطام عن الطمأنينة ولا يجدها.

يتذكر أو كأنه يحلم.. ولا يعرف أين هو بالضبط، وعلى غرابة الأمر يبدو المكان مألوفا له، تهتز الأجساد أمام عينيه مع صوت الدفوف، يطوف الناس حول الضريح خلف الدراويش في حالة نشوة رهيبة، والأصوات في رأسه ما انقطعت، قلبه يدق كالدنيا سريع النبض، هش بالغ الرقة،

obeikan.com

لو صورت له الدنيا حينها بشكل مادي لأبصرها عملة معدنية تافهة يقلبها بين الكفين لاهيا بها، يعرف ألا قيمة لها، وأن الحمقى وحدهم سقطوا في فخاخ الشيطان وآمنوا بملذاتها فأغوتهم إلى قرار سحيق، والشيطان لم يفرض عليهم طاعته، حتى حين وعظهم، فالشيطان لا يعظ إلا وله في نصحه مآرب أخرى، أغواهم وتزينت هي لهم فنسوا الله ونسوا أنفسهم.

يتمايل الدراويش أمامه يمنة ويسرة، تبدو حركتهم كماء بحيرة هوى في وسطها حجر، فتهتز من القلب وتعود ثانية إليه كأنها لم تفارقه منذ البداية، يشعرون بالنشوة ذاتها التي تغمر المكان، يستندون إلى جدار الضريح مبتهلين ومنشدين، يعرفون أنهم سيعودون والرضا يملأ قلوبهم، يصبح الأمر يقيني حين يجد الإنسان ربه.

أدرك أخيرا أنه مقام سيدي حسن أبي يعقوب يوسف بن يحيى الباويطي، أشهر مقام في الواحات البحرية، وعليه سميت عاصمتها، صلى الجنازة على الإمام الشافعي وكانت كريمة الدارين السيدة نفيسة رضي الله عنها من المصلين خلفه، زار الواحات وطاب له فيها المقام فوصى أن يدفن فيها بعد موته. أقيم له الاحتفال والمولد سنويا حتى انقطع دابر الأمر في العقود الأخيرة.

انتفض قليلا مع انتفاضة الذاكرة ..

صدرت الموسيقى الكلاسيكية من هاتفه هادئة الإيقاع، توجه إلى دورة المياه وبقي تحت الماء بكامل ملابسه، وضع الهاتف ومحفظة النقود بجانب المرحاض، وقد اعتاد على الفعل نفسه منذ الصغر، إنها عادة تؤنبه عليها أمه قبل أن ينتقل إلى العيش بمفرده، في وحدته تسرقه الذاكرة إلى براءة الطفولة، إلى الواحات البحرية، طفولة ليست مليحة الذكر، أن يبصرك الغير غريبا عنه رغم انتمائك للعرق نفسه، الفارق يكمن في اختلاف الأرض التي نبتّم من طينها.

ذكرياته لا تعرف اليأس، تعاود طرقها فوق رأسه فيغيب قليلا، تذكره قطرات الماء بالساقط من المطر في برمنغهام بالمملكة المتحدة حين كانت أسرته تقطن هناك، سخرية الأقران منه ومحبة البعض، نظراتهم المتباينة من نظرة الشفقة، وغالبا نظرة الحب، وقليلا تلك النظرة المشدوهة كونه عربي يجاورهم، "العرب جرب" هكذا ينعته صديقه العربي وينعت نفسه وكل ما هو عربي على وجه الأرض، يتابع الوصف قائلا " تراهم في أوطانهم أشبه بكلاب شاردة ما أن تبصر عين واحد منهم امرأة تطلق ضحكة رقيعة، حتى يتصرفون كما يبصر الكلب جيفة ملقاة على قارعة الطريق، يجري إليها وينبح حولها ثم يسحبها بفمه حيث لا يراها أحد ويفعل بها ما يشاء، انظر إلى الشارع، سترى ما أخبرك به جيدا، يا صديقي الطيور على أشكالها تقع، نحن نستحقهم وهم أهل لنا، إنني لا استطيع أن أراهم إلا هكذا"

كان وصف صديقه مزعج له.. لكنه حقيقي، والانطباع نفسه كان موجودا عند هؤلاء الذين لا يحملون الهوية العربية ولم يكرهوا أيضا على حملها..

تتقلب الذكريات ثانية في رأسه وتدور به الدنيا ويدور معها

-أتحفظ النشيد الوطني؟

-ليس كاملا بل أحفظ شيئا منه..

ثم بدأ ينشد لصديقه البريطاني النشيد الوطني "حفظ الله الملكة"

-لا.. أنا اقصد النشيد المصري وطنك أنت لا وطني؟

-مصر يا أم البلاد.. أنتِ غايتي والمراد

-لكنني أذكر أن جيش إمبراطوريتنا قد وطئ أرضكم، يقال أن جيوشنا سحقت شراذمكم سحقا؟

-وأذكر أيضا أنكم ضربتم أروع الأمثلة لفراركم فرار الدجاجة من الثعلب تماما كما فررتم تاركين أثركم شاهدا على نصرنا.

كانت نهاية الجدال مع الشاب البريطاني سيئة العاقبة، يبتسم ويتابع سيل الذكريات انهماره في التناغم مع سيل الماء الساقط فوق رأسه

-أنت ساذج وأبله ألا تعرف حشائش الحلفا؟

-أليست كلها واحدة؟ كلها طعام للماشية؟

obeikan.com

-(بضحك) ليست كلها إلا إن كنت تحسب الخنزير ماشية، كيف تستسيغون لحمه في الغرب؟ آه نسيت أن عيشة الكفار تنسيك كل شيء، دينك، تقاليدك التي تتنصل منها كلما عيرك أهل أوروبا بها، تراه على موائدكم صباح مساء.

-الخنزير محرم!!

-لكنكم تأكلونه في الغرب كما نأكل نحن اللحم الحلال، أنتم في الغرب تأكلونه وتقلدونه حتى أنك أخذت كل طباعك منهم.

تتسع الابتسامة على محياه وتتسع خيوط الذكريات وتتشابك كلها، كيف نال منه الإرهاق النفسي هذا الحد، كيف سمح للحياة أن تتلاعب به هكذا بغير قيد أو سلطة أو قانون يحد من جموحها وعربدتها ذات الصخب.

يذكر لهوه مع أبناء عمومته فوق جبل البشمو شمالي شرق الباويطي، تلك الرياح الخفيفة، قفزات الجمع بكامل ملابسه في أحواض الماء مع يقين بالعقاب الرادع على الجريمة المرتكبة، رياح الجبل تعبث بهم، وتبعث فيهم مشاعر غريبة، الحجر أحيانا ينطق عن مكنونه وما مر به قرابة أحقاب مضت، جداول الماء حين تتخلل أصابعهم يتبعونها بالبصر تتهادى برقة نحو الزروع، يخشى الماء هناك أن ينساب بقوة فيؤلم الأرض، كأن بينهما قصة لا يعرف أصلها غيرهم، يتذكر مذاق

التمر المطلي بالعسل الأسود، رائحة النعنع البري ممزوجا بالشاي، ظلال شجر الطرفا والكافور، الجاموس الذي يُغرق جسده في الماء بعيدا عنهم بأمتار قليلة، صوت القِمرِّي يصيح في ليلة ميمونة يضاهي عزف الربابة، الأواني الفخارية التي يقدسها جده، رفضه القاطع أن يشرب أي ماء غير الذي تحتويه وقدرته العجيبة على تمييز الماء، الحب المختلس الذي تمنعه عادات القرية وتقاليدها، تلك الأمسيات والاجتماعات الأسرية الليلية، مزاح الكبار وتعليقاتهم الساخرة في فناء البيت الخلفي، تجمهر الأطفال حول الجدة طمعا في القليل من المال، بيت الجد الآخر، زفاف فيروز تلك الجارة الحسناء.

خرج من دورة المياه هائما لا يعرف للراحة سبيل، بدل ملابسه المبتلة، تناول مفاتيح السيارة ثم تحرك بها حتى وصل إلى جامعة القاهرة، حيث كان صديقه حسام منتظرا بفارغ الصبر وصوله، وضع الأخير حقيبته في الكرسي الخلفي للسيارة، ثم جلس إلى جوار عبد الله وقد أسند ظهره للمقعد رابطا حزام الأمان مستعدا للرحلة الجديدة.

حسام في بحثه الاجتماعي لم يجد خيرا من عبد الله عونا له، منذ الجامعة وهما صنوان لا يفترقان حتى مع اختلاف المناهج والدراسة، وجد فيه عبد الله الفرصة المناسبة ليعود للواحات مرة أخرى وهو مشتت في القرار بين البقاء في مصر أو العودة ثانية لبريطانيا بعد مضي هذا الوقت بغير فائدة تذكر.

-(عبد الله متهكما) الطريق طويل يا رجل، لن تغلبه إلا بأن تطالع كتابا ما أو أن تغط في نوم عميق.

-السيارات تطوي المسافة أم ترانا نرحل راكبين الجمال؟

-ألم تأخذ احتياطاتك بعد؟

-بلى.. لقد جهزت للرحلة مائة عام من العزلة.

-أظنها القراءة العاشرة للرواية نفسها والألف للكاتب ذاته؟

-ومن يمل من ماركيز أو كتاباته.. إنه كنز ثمين يا رجل

-لكنني لم أتحدث عن هذه الاحتياطات

-عن أي شيء ؟

-أقصد أنك ستظن فعلا أننا سنمتطي الجمال، لذلك أرى أن أهل الصحراء يتطبعون بطبعها ويمتازون بكل صفاتها

-كيف ذلك ؟

-الجمل صبور.. كذلك هم، لهم وللصحراء حكايات لا تنسى، هي تماما كحكايات العشق والهوى التي كانت تروى قديما عن العرب في الصحاري

-(حسام ساخرا) أتقصد أن لديكم في الواحات قيس وليلى ؟

obeikan.com

-ليس كما تظن.. حكايات الصحراء هم وحدهم من يستطيعون روايتها لك، ولو كان فيها قيس وليلى ما تركتها، وما تركوا هم ليلى على قيد الحياة.

انغمر كليهما في سيل من الضحك ريثما صعدت السيارة الطريق الدائري، كل شيء يعود كسابق العهد مع عبد الله في الذكريات وهو يقطع الطريق شارد الذهن، مشتت العاطفة، يدفعه الحنين الجارف مهدرا في ثنايا جسده كل ذرات العناد والمقت التي كانت تسكنه، بدأت الذكريات تعاود طرقها الثقيل فوق رأسه، ذلك الطريق الطويل الذي قطعه في الطفولة مع أسرته حين عادوا من إنجلترا، الحافلات المصرية لا تملك الجودة نفسها التي يبصرها في الشوارع البريطانية، الطرق لا تنال الحظ نفسه من النظافة والعناية، الأرض هنا تتحول إلى اللون الأصفر عوضا عن الشجر المنتشر على جانبي الطريق، هنا حيث الشرق فلا وجود للضباب.. أيقظه من السبات العميق طابور طويل لسيارات تصطف أمام كمين للشرطة على الطريق الصحراوي، ما أن جاء الضابط بالقرب منه حتى سأل عن الوجهة ليبرز له عبد الله جواز سفره البريطاني ورخصة القيادة والسيارة الخاصة به.

يبتسم الضابط في هدوء ويعيد إليه أوراقه ثم يتابع عبد الله سيره الهادئ في الطريق إلى الواحات، ثم تعود الذكريات لتنساب مرة ثانية، حين يردفه خاله على الدراجة النارية ويجول به في شوارع الباويطي

والقصر، لا يكاد يميز السبب الذي يدفع أقرانه إلى حب الرحيل من هنا؟ من ذا الذي يقايض هذا الهدوء الأخاذ والجمال بكل الصخب الذي تعانيه أوروبا وتلك البرودة التي تسري في الأوصال والوجوه؟

توجه بسيارته نحو الجنوب الغربي من العاصمة، حيث تغرب الشمس ويغرب كل شيء معها، ربما لهذا ظن الفراعنة قديما أن الغروب ما هو إلا الشروق عند الموتى، لم يكتشف أحدهم آثارا فرعونية في الواحات إلا تلك التي تعود إلى الأسرة السادسة والعشرين المصرية، في الوقت الذي ما عاد فيه للمجهول قيمة أو صار استكشاف حياة الموتى شيئا يثير الشوق في النفوس، في وسط الموت تظهر الحياة.

ابتسم حين هلت عليه عبارة حسام الساخرة وهو يقول "إن طريقكم جنة" لم يكن غير اللون الأصفر وحبات الرمال الناعمة في الطريق يبصرها المرء، ولم يمقت إلا تلك الصورة الحقيرة في ذهن كل صديق بإنجلترا سأله عن الواحات وأنها ليست كما صور له في الكتب.. نخلتان وناقة وبحيرة وهودج تركب فيه امرأة مرتدية نقابها، وأعرابي بجلباب واسع يقود الهودج حول البحيرة العذبة كمن يطوف حول الكعبة يحيط به كثير من الأغنام وينشد أغنية بدوية غير مفهومة بينما يتلاعب به الهواء والناقة خلفه تصدر أصواتًا غريبة وتجتر ما كانت تلوكه من طعام، ويسند رجل مسن ظهره إلى النخلة وهو يترنم بواحدة من الأغنيات الشعبية التي تتحدث عن السير العربية القديمة واصفا

إقدام بطلها وإحجامه.

سار بين الجبال الصحراوية السوداء الكئيبة والرمال الصفراء التي تتبادل مع الجبال الوجوم، مر من الزمن وقت حتى توقف في الاستراحة التي في منتصف الطريق.. استراحة شركة الحديد والصلب في الواحات البحرية.. قديما كانت تلك الاستراحة منفردة في الصحراء كطفل ضائع من أبويه هائما على وجهه، تحيط بها الكلاب الضارية من كل جانب، شريدة جائعة تتوق لافتراس أي شيء يقترب منها، لقد تغير الطريق كثيرا عن الذي كان يذكره في صباه، لم تكن آبار البترول تلك موجودة في هذا المكان، ولا تلك السيارات الضخمة التي تحمل الحاويات تتحرك هنا بعد نشاط تجارة التمور وتصديرها إلى شتى بقاع الأرض عن طريق نقلها إلى محافظتي الإسكندرية وبورسعيد، ولا حتى ذلك الطريق المزدوج الذي شرعت الحكومة في شقه بعد الحوادث التي تكاثرت بشدة على طريق الواحات البحرية.

خرج حسام من السيارة متذمرا يشتكي خمولا في أطراف جسده، لأكثر من مائة وعشرين دقيقة ظل حبيس الرواية التي يطالعها والمقعد الذي يقيده حتى وصلا، كاد في البداية أن يوجه الاتهامات لعبد الله بالتكاسل في السير لكن المسافة كانت طويلة بحق، اجتازها في وقت قياسي ليعوض شيئا من الملل الذي أضفاه الطريق عليهما، جلسا في الشمس يحتسيان القهوة ويدخنان ريثما يستعيد كل منهما شطرا من

نشاطه لمتابعة الرحلة، ليقطع عبد الله دابر الصمت قائلا

-أتعرف منذ سنوات ليست بالبعيدة كان هذا المكان خاليا من أي شيء عدا هذه الاستراحة، لم تكن الثكنات العسكرية للجيش رابضة هنا ولا محطة الوقود تلك، ولا حتى هيكل المسجد الذي توقف فيه البناء لسبب مجهول ولأجل غير مسمى

-صحراء جرداء أيضا، لا يوجد غير الرمال واللون الأصفر منذ خرجنا من القاهرة حتى الآن.. يا رجل القاهرة نعمة.

-(عبد الله ضاحكا) نعم.. وستنسى كل النعم حين نصل إلى الواحات، الدنيا تتغير يا صديقي، من يصدق أنه وفي عشر سنين فقط كل هذا قد تغير وطرأ على المكان، أنا شخصيا لا أصدق.

-صدق أو لا تصدق علينا أن نتابع الطريق.

تحركا والضجر والملل كادا أن يقتلا حسام حتى اقتربا بعد ساعتين إضافيتين من أول قرية بالواحات البحرية، فيها أو أول مستعمرة، سأل حسام

-هذه المناجم.. أليست كذلك؟

-بلى، مناجم الحديد والصلب، في هذا المكان أذكر جيدا الحراك السياسي للناس في عهد مبارك إثر خبر التقسيم الإداري الأحمق.

-في بعض الأحيان يبدو أن الساسة يستمتعون بقرارات مبهمة إزاء الشعوب.

-لقد كان قرار ضم الواحات البحرية إلى إحدى محافظات الصعيد عوضا عن محافظة الجيزة أو السادس من أكتوبر وقتها كارثي بحق، نودي في المساجد والطرقات أن انفروا إلى المناجم واقطعوا طريق الحديد المؤدي إلى القاهرة أو كونوا كالنعاج تساق حيث أراد لها الرعاة، تسربت الأنباء أيضا أن التقسيم قد طال محافظة مطروح وأن البدو والأعراب من ساكنيها قد خرجوا بالسلاح والعدة اعتراضًا على القرار الذي تغير في نصف ساعة فقط بعد مجزرة دموية لا مثيل لها.

-وماذا فعل الناس؟

-احتشدوا لأيام ثلاثة، الدخول أو الخروج ممنوع بالمرة، وعلى الناحية الثانية تقف قوات الأمن المركزي برجالها شاهرين عصيهم في انتظار أمر الاقتحام، ثم صدر القرار بإعادة الواحات ثانية إلى أحضان السادس من أكتوبر ثم ألغيت المحافظة بعد الثورة لتعود بدورها إلى أحضان الجيزة.. الأم.

بعدها تجاوزا قرية الحارة، قرية تسقط عليها من فوق الجبال المفعمة بالحديد الخام حمراء اللون.. هادئة رزينة كوردة نبتت في وسط بستان بلا أشواك تحيط بها، ثم تابعا السير مارين بالقبالة ثم منديشة

ومن ورائها الزبو.. قيل أيضا أن منديشة سميت بذلك الاسم تيمنا ببنت الحاكم ذات الجمال الخلاب " الأميرة منديشو "، لا يمتاز قوم بالسخاء والكرم كما يمتاز أهلها، ومع الكرم هم أولوا بأس شديد، لا يعول عليهم أحد ولا يستجير بهم إلا ونام قرير العين في مأمن، ثم مرورا بالعجوز.

وعند وصولهما لتلك القرية الصغيرة هتف حسام كمن عثر على كنز ثمين ثم قال

-لقد سميت العجوز بهذا الاسم إذ كان الحكم على الزانيات في واحة سيوة أن يركبن الجمل وينطلقن إلى الصحراء فإن بقين على قيد الحياة فهذا لهن وإن متن فهذا عقاب الله جراء الفاحشة لتي ارتكبنها.

-أي أنها ليست لأن امرأة عجوز قد سكنتها وحيدة بعيدا عن العمران ؟

-لا.. لم يكن الأمر كذلك مطلقا.. لقد وصلت إحداهن ذات مرة إلى الواحة فرفضها أهل الباويطي ورفضها أهل منديشة فأقامت في المنطقة الوسطى بينهم وسميت المنطقة بمنطقة العجوز لأن أهل سيوة قد تعرفوا عليها بعد أن بلغت من الكبر عتيا حين استقرت في المنطقة.

-لكن لدي حكاية أخرى أنها امرأة هجرها أولادها فضاقت عليها الأرض بما رحبت وعادت لتسكن وحيدة منفردة تخفي عذاباتها

اليومية في مكان موحش بين بلدين.

-في الحكايات والأساطير لا يمكنك التكذيب ولا يمكنك التصديق، كل ما يمكنك فعله هو الاستماع فقط.. عليك أن تقبل الحكاية كما هي بدون رتوش أو بدون سؤال عن الحقيقة إن لم تدون.

أبصرت عيناهما من فوق العجوز ذلك الجبل الشاهق الذي بقيت في قمته واحدة من شواهد المعارك التي دارت في هذا المكان في الحرب العالمية الثانية، هو جبل الإنجليز حين جاؤوا لطرد العصابات السنوسية، تلك التي قامت باحتلال الواحات البحرية إبان هزائمها المذلة على يد الجيش الإيطالي الذي احتل ليبيا قبل أن تطرد مرة ثانية على يد الحامية الإنجليزية وقائدها الكابتن وليام بين عامي ١٩١٩-١٩٢٠ ، يشعر عبد الله أن عودته تشبه بشكل أو آخر عودة الروح للجسد، هذا السكون وطاقة الحب التي لا تنتهي، كيف صارت الأرض بهذا الجمال؟ هنا يصدق المرء أنه على الأرض ما يستحق الحياة.

تصل السيارة إلى البوابة البيضاء، حاضرة الصحاري ومدينة الباويطي، ساكنه كعادتها لا تهتز باهتزاز الأرض ولا تتأثر بكل ما يحيط بها من صخب، المدن كالنساء، بعضهن تهواه نفسك ولكنها تصيبك بالملل بعد حين، وبعضهن ساكنة لكنك إن امتزجت معها أنستك نفسك وسكونك و أنستك الحياة.

كل شيء يعود لأصله الآن، لا زال ذلك العبق القديم يزكم أنف عبد الله لا بروائحه بل بذكرياته، رائحة كروم العنب الفواحة في الحديقة الخلفية للمنزل والتي أزيلت بعد جفافها، أشجار المشمش التي احترقت جذورها في يوم مشئوم، شجرة المانجو التي اختلس تحتها جلسات قديمة يمارس فيها خطايا الطفولة وشقوتها مع جارته التي كانت مبهورة بهذا العائد من أوروبا، بلد الأجانب الذين تبصرهم ملوني الشعر والأعين في الطرقات وتتصايح والأطفال في غبطة ملوحة لهم " hello sir.. hello ms "، حظيرة الدجاج والإسطبل الداخلي ورائحة الروث الجاف التي كان يشمها فتصيبه بالقيء مذ كان صغيرا، أشجار التين الشوكي التي اقتلعت من جذورها يوم أعيد ترميم الجدار الخلفي للبيت، السقف المكون من الطين و جذوع الشجر والسعف وأوراق النخيل، الجدران الزرقاء الملساء، حجرة الفرن وحظيرة الدجاج والأوز.. كل شيء يفجر في طيات النفس ذكريات لا حصر لها.

مع كل نسمة هواء باردة أو ساخنة تحل ذكرى من الذكريات، النسيان يُنسى في هذا المكان؛ ببساطة لأن المرء يختار الهروب للأفضل حين يعود إلى مسقط رأسه.

يصلان أخيرا إلى البيت، يفتح عبد الله الباب ويلج إلى الداخل، كل شيء لا زال كما هو.. الكراس الخشبية، تلك الرائحة النفاذة التي يشتاق لها كلما هل الموعد الشتوي لزيارة الواحات، الباب الزجاجي

الذي توارى نصفه خلف الستائر البيضاء، أشجار البرتقال واليوسفي والزيتون والليمون، كل بيوت الواحات تمتاز بحديقة في الفناء الخلفي لها تحوي ما لذ وطاب، دلف من الباب الخلفي لفناء المنزل ثم فتح البوابة الكبيرة وأدخل السيارة تحت السقيفة المقامة من جريد النخل اليابس، تستند إلى شجرة التوت البري الأحمر، خرج حسام من السيارة متذمرا كعادته يقاوم هجمة شديدة من النعاس سيطرت عليه في المدة التي ظل فيها حبيس السيارة، أنزلا أغراضهما وتوجه حسام إلى الغرفة التي أرشده إليها عبد الله بينما تحرك الأخير نحو الحديقة الداخلية للبيت.

-من هناك؟

هكذا صاح بستاني أسمر اللون اشتعل رأسه شيبا يرتدي صديرية بيضاء بأزرار شفافة اللون، فوق رأسه قبعة بيضاء تغطي شعره الأبيض القصير، تخفي القليل من الصلع الظاهر على مقدمة رأسه، يمتد أمامها أنف مدبب عظيم يبدو من تحته شارب أبيض كث تشوبه شعيرات سوداء، وانحناءة الظهر تبدي للناظر كم تقدم الرجل بالعمر، يداه كبيرتان خشنتان من أثر الفلاحة والعمل، تتغير ملامحه.. يبسم الثغر ويشرق محياه حين يبصر عبد الله الذي ارتمى بين أحضانه

-عم حسن كيف الحال؟

-عبد الله.. ما هذه المفاجأة؟

يترك حسن الماء الذي بين يديه ثم يصحب عبد الله حيث كومة من الفحم الصغير ليضع فوقها الشاي، ثم يخرج من الإناء البلاستيكي أكوابا صغيرة وعروقا من النعنع الخضراء و سكرا أصفر اللون.

-ليس هناك في ساعة الظهر خير من الشاي الواحي.. هو الأنسب في كل وقت (يلتفت إلى عبد الله مداعبا) ربما لم تعتد معدتك عليه.

-(مبتسما بود) ما أتى بي إلا هذا ، فاسقني واشرب يا عم حسن.

-آه "اسقني واشرب على أطلاله، وارو عني طالما الدمع روى" ذكرتني بالمذياع الذي أهداه لي جدك منذ ثلاثين سنة، كان دخول الكهرباء للواحة حديثا وقتها، وكان جدك على عهده سباقا في كل شيء، كنت أسمع الأنباء متوسما أن اسمع عنكم في أوروبا (يطلق ضحكة صغيرة ثم يتابع حديثه لعبد الله)، كنت أظن الحياة صغيرة مقتصرة علينا فقط حتى علمت من جدك بالقاهرة وما فيها.

-أما زلت محتفظا به حتى اليوم؟

-لقد تهالك بالطبع لكنني أبقيه في البيت، وقت يضيق صدري ألجأ إليه، أجلس إلى جواره، إن الزمن يضيق بي يا بني أكثر مما تتخيل، لم أعد أجد سلواي في غير الفلاحة، قد رحل عني كل الأصدقاء، كنا عصبة واحدة ثم فرق الموت بيننا وأشاع الزمن فينا الضعف، فصرنا كالحمار الكهل الذي ما عاد يقدر على العمل، فلا ملاكه يعتنون به

ولا هم يكترثون له، ما يسمعونه منه محض نهيق فقط، لكنه يحمل الألم الشديد في طياته.. إنه الزمن لا أحد بالمرة يستطيع أن يهزمه، كنا مثلك هكذا في شبابنا نتفاخر مرفوعة أنوفنا ونظنه ينسى، لكنه يمهلنا حتى يأخذنا على حين غرة، لقد أرسل لنا الشيب كنذير لما ينوي فعله.. لست أدري أحقا لم ننتبه له أم كنا نتجاهل تحذيره، أتعرف.. لقد جلبت لي حفيدتي التي تدرس بالقاهرة مذياعا جديدا حين تعطل مذياع جدك، لكنه لم يعد لي السعادة نفسها حتى أصلحته، يتعجبون مني حين أرفض الجديد، أنا لا أرفضه ولكني أشم رائحة الذكريات في القديم.

صمت قليلا ثم انتزع عبد الله من شروده قائلاً:

-آيات القرآن كانت خير شيء يسمعه المرء قبيل صلاة الفجر، هناك يا ولدي كانت البساطة على شاكلتها الأولى، كان الرضا يسود الوجود، وكان الصفاء يتربع على قلوب الناس في الواحة.. لم يعد كل شيء إلى سابق عهده، بات الجميع يتربص بالجميع ولا يكترث الجار منا لجاره، كنا إذ نمر بجوار العمدة يخلع المرء منا نعليه ويترجل عن حماره إجلالا لمقام عمدة الواحة.

-تخلعون النعال من أجل العمدة!

-ولا نقيم عرسًا إن كان في الشارع مأتم.

ساد بينهما الصمت ثم مد حسن يده بكوب الشاي إلى عبد الله متابعًا.

-لا تأبه بقولي، فقط استرح واستمتع بنسمة الهواء العليل.

*****

obeikan.com

الفصل الثاني

الواحات البحرية – قرية القصر ٢٠١٤م

منزل شريف الزينبي

تحرك عبد الله وحسام في جولة الجمع الأولى إلى بيت السيد شريف الزينبي، هو قريب لعبد الله من ناحية أمه وأسن رجال العائلة وأكثرهم معرفة ودراية بالأمور التي دارت فيما مضى، من حملة القرآن الكريم، يصفه عبد الله بأنه أفصح الناس وأكثرهم دقة في الوصف، ربما هو الأصلح للمشروع الذي يعمل عليه حسام، كان عبد الله قد اتفق قبل هذا اللقاء مع ابن السيد شريف على كل شيء.

وصلا إلى البيت حيث كان طفل صغير ينتظرهما على عتبة الباب، حين رأى الطفل عبد الله وحسام يترجلان من السيارة ركض سريعا للداخل، وخرج حينها رجل في الأربعينيات من عمره، دعاهما للدخول فدلفا إلى حجرة الاستقبال، واسعة كانت مطلية باللون الأحمر الداكن، وكعادة البيوت التي أسست في الواحات البحرية منذ عشر سنين يتلون الجدار بالألوان الزاهية والعبارات المعروفة حينما يعود كبير الأسرة

obeikan.com

من الحج " حج مبرور وذنب مغفور يا حاج شريف" بينما علق على الجدار صورة كتب عليها سورة الفلق، في الواجهة توجد منضدة عتيقة وضعت فوقها مزهرية نحاسية اللون، وقد افترشت الأرض بالسجاد والمجلس العربي المعروف في الواحات البحرية، مع كرسيين عتيقين وضعا على يمين النافذة ويسارها.

دخل عليهما شاب صغير وضع المنضدة القصيرة أمامهما وعليها وضعت الفاكهة وبعض من الحلويات المصنوعة في البيت بينما دخل طفل يحمل الشاي إليهما، وبعد الطفل دخل إليهما شريف الزينبي شخصيا، كان أسن مما توقع عبد الله، يرتدي جلبابا يميل للزرقة مفتوح من الصدر، تبدو صديريته بيضاء من خلفه، وقد انحنى ظهر الرجل ليبدو الثقب في رأس القبعة الصوفية التي يرتديها فوق رأسه صيف شتاء، وهو يستند إلى عكازه المعقوف من نهايته، جلس أمامهما وربع رجليه مبتسما، يعرف مهمته جيدا، أن يعطيهما كل ما يعرف من أخبار، ليست أخبار محصورة عن أسرة الزينبي وحدها، بل كل ما يعرف عن الواحات البحرية.

جلس الشاب والطفل إلى جواره بينما شرع هو في الحديث

-اطلب من ضيفك ألا يخجل يا عبد الله تفضل يا بني.. البيت بيتك.

-(حسام مبتسما) شكرا يا حاج شريف.. لقد غمرتنا بكرمك.

-حضرت أهلا ونزلت سهلا يا بني.. لقد أخبرني عبد الله بما تريد وما تسعى خلفه، وأنا لا أرفض لعبد الله طلب، هو ابن الغالي، كما أنك سبب جعلني أراه ثانية وكنت أظن أنني سأموت دون أن ألقاه.

-(عبد الله منفعلا) أنا لا غنى لي عنكم يا عمي، لكن الحياة مشاغل والظروف أحيانا ...

-(شريف مبتسما بود) دائما ما نلقي على الظروف خطايانا يا ولدي، وهي منها بريئة، هب أن لك ميت في الأرض، هل ستمنع الظروف المجيء؟

تدخل حسام في تلك اللحظة ليحسم النقاش بينهما متطرقا إلى ما يعرف من تاريخ الواحات البحرية سائلا الشيخ :-

-هل تذكر شيئا عن تاريخ العمد في الواحات البحرية يا عم شريف ؟

-نعم يا بني.. ومن يذكر مثلي

-حسنا هل لك أن تقص علي شيء.. من تاريخ أسرتك حتى ؟

أسند الشيخ ظهره للجدار ووضع عكازه إلى جانبه، زفر بهدوء ثم قال :

-الحكاية طويلة جدا، كان جد جدي الأكبر الزينبي أميرا من أمراء الأندلس، خرج منها وقت الحرب مع الأسبان قبل انهيار الأندلس الكبير، وقد انقسمت الأسرة بعد هذا الخروج والشتات إلى شطرين، ذهب الأول إلى تونس الخضراء، والثاني مكث في دير البلح في المغرب

العربي، حيث لا تطالهم أيدي الأسبان ولا تنال منهم تلك المحاكم المزعومة التي أقاموها ضد المسلمين الذين سكنوا تلك الأرض وعمروها، وفي بعثة للحج وصل جدي الزينبي إلى الواحات البحرية بعد العودة من بيت الله الحرام مثلما فعل الشيخ الباويطي، طاب له فيها المقام ولصلاحه تزوج من بنت العمدة في تلك الآونة، وهذا العمدة لم يكن له ولد، حين جاء وقت موته سألته ابنته أن يهب العمودية لزوجها ففعل، ومنذ ذلك الحين والعمودية في أسرتنا حتى جد عبد الله آخر عمدة من أسرة الزينبي يحكم القصر.

-(نظر حسام مبتسما لعبد الله قائلا) لكن هل تذكر شيئا له تفاصيل أكثر مما أخبرتني به؟ أعني عن الواحات الأخرى كالباويطي ومنديشة والزبو؟

-بلى.. قيل أن هذا بدأ قبيل الثورة التي قام بها علي بك الكبير ضد الدولة العثمانية والهزيمة التي منيّ بها على يد محمد أبو الدهب.. يروى أنه قبل هذه الثورة تم نقل أحد الحكام العثمانيين من المنيا إلى الواحات، عاش ومات دون أن يسمع به أحد، أعقبت حكمه فترة غامضة، ثم جاء من بعده عمد من الواحات نفسها كان أول ما جاء ذكره منهم العمدة مؤمن، وقيل أنه طاغية، فرعون بعث بين الناس من جديد، استغل انشغال القاهرة بأهلها واستبداد حكامها، وبعث لهم بالعطايا والهدايا التي أخذها عنوة من أهل الواحات ليشتري بها صمت

السلطة التي ما كانت لتعير واحة نائية أي اهتمام، وما كان من الواحات تحت حكمه خطر، جعل من الناس شيعا، طبقات فوق طبقات، للواحد منهم فضل على أخيه في البطن الواحدة، وقد روي لي أيضا أن هذا الرجل كان له حرسا شديدا وخفرا لا طاقة للناس بهم، لكنه كان كثير الخلوة بنفسه بعيدا عنهم، الهيبة منه والخوف يفوقان احترام الناس له، يبصرون في جسده الضخم عجزهم الكامل عن كل شيء، وكانت قصة موته أغرب من حياته.

-وأين هو الآن.. أو أين شاهد قبره؟

-(ابتسم الشيخ متابعا) قيل أنه توجه ذات يوم إلى الخلاء وما أن دخل الدار حتى نزع جلبابه وجلس القرفصاء، وفي ذلك الدار قبع قاتله يتربث لينزع منه الروح إلى بارئها، سدد بصبر ضربته إلى غريمه فأصابته رصاصة في ظهره فهوى، اختفى القاتل الذي لم يتأكد من إتمام مهمته لما بثه الرجل فيه من رعب حتى وهو ميت، وظل الناس يعملون في دأب لا يعلمون ، يخاف الخفر أن يدخلوا عليه فيجدوه ميتا فيثور عليهم ضعفاء المدينة، ويخاف الناس الدخول فيجدوه حيا فيأخذهم ببأسه نكالا بفعالهم، إلا أن رائحة العفن فاحت وكان العمدة ميتا.

-ومن حكم بعده؟

-تولى من بعده مقاليد الأمور رجل بسيط المال والجسم، ثار عليه

الناس وتوجهوا إلى محكمة الفيوم لينالوا منه المنصب، كنا نتبع تلك المحكمة إداريا في هذا الوقت، ابتاع العمدة الجديد كل ما يملك ثم سلم نصفه لحاجب المحكمة شرط أن يدخل أمام القاضي ويضع له الكرسي ويقدم له شيئا يشربه أمام القاضي.. وقد نفذ الحاجب أوامره كما هي، صاح القاضي في الحاجب حين دخل بالكرسي إلى القاعة، رد الحاجب بتلقائية " قيل لي أدخل الكرسي إلى العمدة أين هو؟ " ثم أشار الخصوم بغير وعي إلى العمدة قائلين هاك العمدة أعطه الكرسي.. فرفع القاضي جلسته قائلا أنتم نصبتموه ولن أخلعه، وباءت كل محاولاتهم أن يثبتوا أنها محض سقطة منهم بالفشل، ونصب رغم أنوفهم عمدة وحاكما على الواحات.

-من المؤكد أنه نكل بهم بعد أن عاد الجميع للواحات؟

-لا.. لم يفعل فقد كان طيبا ولم يكن يحب أن يؤذي من الناس أحد، إلا أن الرجل قد مات بعد زمن وانقسم النفوذ من بعده إلى ثلاثة.. الباويطي والقصر ومنديشة لكل منهم سيدا وسلطانا، ولكل منهم عادة ورأي يغاير صاحبه وإن كان الدم واحد فالحديث واللكنات متغيرة.

-وماذا عن جدك أنت ؟

-صدقني.. ما أذكره اليوم قد بات شحيحا، فالعمر لا يسعفني يا ولدي لكن هاك ما أعرفه سأرويه لك كاملا ...

وبدأ الشيخ يروي لهما أحداثا منذ عام ١٨٨٤م

نضب الزرع.. حلت المجاعة وتفشت الأمراض في كل شبر من الأرض، الماشية ما عادوا يجدون لها الكلأ، فذبحت عجافا بطونها خاوية كي تشبع بطون البشر التي نضب ما بها فلم يكن كافيا، وبات الهلاك هو المصير المنتظر لكل الباقين فيها والذين أبوا على أنفسهم الرحيل والنزوح إلى المنيا والصعيد كما فعل غيرهم. إن الهلاك يشارك الصحراء حصارها عليهم، يحملان مع بعضهما الموت الناقع لكل من سولت له نفسه أن يبقى في مجابهتهم لفترة أطول.

لم يستطع العمدة في هذا الوقت توفير القدر اللازم من الضريبة المفروضة على أهل الواحات من تمور وثمار تنتج فيها فباتت الضريبة التي حملها مندوب الوالي منقوصة إلى حد كبير، وقد استغل رجل ثري يدعى تهامي البنداري ذلك الأمر فدفع من جيبه ما يكفي الضريبة المفروضة ثم أجزل العطايا لمندوب الوالي وهو يخبره سرا أن سبب الهلاك الذي يحيط بالواحة يرجع إلى سوء الإدارة التي يقوم بها العمدة الحالي حسن الزينبي، وما كان من المندوب إلا أن يفصح بالأمر كله إلى الوالي في تلك اللحظة، الوالي الذي أمر بضرب عنق العمدة أو شنقه علانية ومنح البنداري منصبه ليكون عمدة جديدا لقرية القصر.

وصلت الحملة إلى ساحة أبوشتي وقد أخذ العمدة بمهانة بالغة من

بيته بعد أن أجبر الناس على الحضور ليشهدوا موته، مر وقت قصير وصار جسد العمدة يتأرجح متدليا من حبال المشنقة، الشمس تشرق حمراء بلون الدم، والدم يسيل من رقبته حتى يصل إلى قدميه من الجرح الذي سببه الحبل الذي يلتف حولها، حين جاءت ساعة الإعدام دخلت النساء مصطحبة أطفالهن إلى البيوت، أبى قائد التجريدة ذلك ثم نادى أن يعدم العمدة على مرأى ومسمع من آل بيته جميعا، سحب الناس على وجوههم إلى ميدان أبوشتي، أبصروا موت الرجل، تكتم الواحة حزنها عليه مع مكوث التجريدة العسكرية التي أرسلها الوالي لإرساء الهدوء في الواحة وتثبيت حكم البنداري إثر وشايته الأخيرة ضد حسن.

يوم مر وأجساد ثلاثة معلقة على حبال المشانق، الحسن وابنه الأكبر علي والأوسط سليمان.. العمدة وكل ما تبقى من نسله عدا عمر الابن الأصغر الذي نجا بفلذة كبده سليمان بمشيئة الله من هذه المذبحة.

في جنح الليل قبيل الشروق تطوعت النسوة اللائي حرمن من البكاء أو إبداء أي شق من الحزن في حمل الأجساد الثلاثة بالاتفاق مع ياقوت عبد العمدة والذي لم يبد على جسده الذي احتفظ بكامل قوته أنه قد بلغ من الكبر عتيا بإجراء الدفن. ثلاثة قبور قد حفرت في الحديقة الموازية لمنزله، ثلاثة أجساد وارت التراب وقلوب تكاد أن تنفطر كمدا عليهم. ليس هناك في الدنيا أسوأ من فقدان الأحبة، لكنهم لم يعرفوا

بعد أن غمد الحزن في محمل الجسد أشد ألما وأكثر فجيعة.

رحلت في اليوم الثاني التجريدة العسكرية التي جاءت من القاهرة إليها وبات الخوف هو الساكن الوحيد فيها، وباتت القبور أكثر أمنا من البيوت، انتشر اللصوص في الواحة وكثر الهرج والقتل، صار سفك الدماء أمر عادي في سبيل لقيمات من الخبز الجاف الذي أصبح أغلى من الذهب، لم تكن الواحات المجاورة بحال أفضل من هذه، لكن طغيان الحكام فيها مهد للكثير من السكوت.

بعد اثنتي عشرة عاما ..

انفجرت فرحة طاغية حين جاء قرار بإعدام البنداري وولديه على نفس الشاكلة إثر وشايته بالزينبي، تجريدة كسابقتها جاءت من القاهرة تزف الخبر وتعيد تنصيب عمر بن حسن الزينبي عمدة جديدا لأهل القصر، دماء الأضاحي كانت تغرق الساحة السفلية لأبوشتي تلك المنطقة التي ظلت تحتفظ باسمها القديم منذ العصر الروماني، راكب يمتطي الجواد ثم يختال ويرقص بانتشاء يصل إلى عنان السماء فينسى الأرض وما عليها، زغاريد النساء اللواتي أذللن منذ سنين تنتشر الآن في أرجاء المكان، يتبارى الرجال بالتحطيب، ذلك الذي توارثوه عن الصعيد منذ الفترة التي نالت منها المجاعة ونشبت أنيابها في الواحة.

obeikan.com

يجلس عمر على الكرسي الخشبي المفروش بفراء الغنم المصبوغ باللون الأحمر ويحيطه شيوخ البلد، فلا أحد منهم بعد قرار الوالي الأخير والإعدام الذي نال منه أسلافهم شطرا كبيرا جرأة أن يعترضوا للمرة الثانية على حكم العائلة، هو ملك الله يؤتيه من يشاء، من يصدق منهم أن هذا الصغير المتلعثم الذي شب متروكا منبوذا بعيدا عن أشقائه يعود ثانية ليقوم مقام والده، ويجلس على كرسي العمودية بعدما أطاح بكل منافسيه.

تقترب رشيدة زوجة الحسن منه ومن حولها ابنتيها وهي تحمل في يدها عباءة سوداء وعمامة بيضاء فوقها، ينهض عمر من مجلسه ويسود الصمت المكان.

-هاك ما تركه أبوك.. هو لك الآن.

ثم تلبسه بنفسها عباءة أبيه السوداء وعمامته البيضاء كمن يتوج ملكا فوق عرشه، يتدافع الشباب إلى الديوان ويحملون ابن العمدة على أعناقهم من مجلس أبيه إلى الساحة الخارجية، يتذمر الشيوخ لقيمتهم التي حط منها الشباب بفعالهم الصبيانية، والعمدة لا يمنح أي منهم اهتماما بالمرة إنما الفرحة هي المحرك الوحيد في هذا الوقت لمشاعره كلها.

وبين فرحة الشباب وضجر الشيوخ يمتطي سليمان جواده الأسمر ويتراقص به في ساحة أبوشتي، ترقبه الفتيات بعيونهن وعينه لا ترقب

إلا واحدة فقط.. يمن.. تلك التي فاق حسنها كل حسن، بدر تجلى على الأرض، هربت مع من هربن من الفتيات لتجهيز الولائم وظللن جميعا يرقبن الاحتفال من الشرفات العليا أو النوافذ، رقصت بين النساء في هذا اليوم، تتلألأ بين الفتيات كما يبدو القمر بين النجوم، ينساب شعرها البني المحروق على كتفيها، نجح في تغطية شطر من رقبة بيضاء وأذرع شفافة مرمرية، كل شيء فيها متناسق بدقة كمن اختارت ما خلقت عليه، عيناها السوداوتين الواسعتين تتناسق وجمال وجهها الفتان، لم يكن في هذا اليوم من يجبرهن على ستر وجوههن أو مفاتنهن، إن قرية القصر في عرس عظيم، كما قال العمدة "إن القصر تفرح".

لم تكن النعمة نفسها للنساء متساوية، هناك من كتب عليه الشقاء منذ الولادة وحتى الموت، ظلت سكينة تغرف المرق واللحم في الأواني التي يحملها الأطفال الصغار إلى الخارج، تخدم عائلة العمدة كدأب عمها الراحل ياقوت، ما تعرفه عن أصلها شحيح، ورد ذكره من نساء العائلة اللواتي سرقهن العمر ثم نسي الموت أجسادهن بين ذويهم فصاروا جلودا تكسو عظاما تتحرك على مضض، الكثير من العبيد هنا والأكثر من الخدم، تلك المجاعة المشئومة التي سحقت الواحة جعلت البعض يأكلون أوراق الشجر، الجيفة، ثم يفقد الملاك ملكهم لصالح السادة والمستنفعين حتى باتت الواحة ما بين سادة وعبيد وشريحة صغيرة

بينهم.

هؤلاء لا يعرفون شيئا غير أنهم ولدوا عبيدا بالفطرة، والعبد دائم التمرد على رحمة سيده التي لا يبصرها إلا قليلا، دائم الطاعة لسياطه، والسنين تحول الأحرار إلى عبيد يرمحون في ثنايا الأرض فلا يجدون ما يسد الرمق، يصعدون بخيلائهم إلى عنان السماء ثم يسقطون كالطير إلى الأرض موتى كأنهم تاريخ قديم.. أو هم بالفعل هذا التاريخ.

وعن سكينة.. يقال أن العمدة الأكبر الزينبي قد اشترى جدها من هؤلاء العرب الذين يرتحلون في البادية قادمين في قوافل من الجنوب، إذ أسروه بمعارك السودان في الفتوحات التي قام بها محمد علي باشا، كان طفلا صغيرا وقتها جُرد من أبيه وأمه واقتيد مع العبيد في القافلة حتى وصل إلى الواحات البحرية يقتله الإنهاك والإعياء، كانت راحته في بيت الزينبي والد حسن، لم يكن يدرك أنه بيده سيدفن حسن الشاب المقارب له في العمر والعمدة القادم والنديم الأقرب.

تمضي الأيام حتى يدفن هو الآخر دون أن يحضر يوم الثأر، اليوم الذي عاد العز لأهله وعادت الماء للمجرى الذي كانت فيه من قبل.

*****

الفصل الثالث

الباويطي – جنوب غرب منطقة السور ٢٠١٤م

منزل عبد الوهاب بن مهدي الحجار

بدأ اليوم الثاني من الترحال في الواحات البحرية، ترجل عبد الله من السيارة ثم تبعه حسام وتحركا صوب بيت قديم في وسط الباويطي، على كومة الرمال هذه، تحت السدرة التي لم تجففها السنين، كان عبد الله يمكث جوار جده، يراقبه وهو يدخن نارجيلته، يضع الفحم تارة، ويكثر من التبغ تارة أخرى، وعينه تبصر المارة كلهم، وبجواره صديقه بقبعته البيضاء وجلبابه الواسع المائل للزرقة، يدخنان سويا من النارجيلة نفسها، ويعدان النار على كومة من الحطب إلى جوارهما، كم كان يأنس الجلسة معهما وهما يتناجيان عن زمن الماضي كأنها أشباح ولت بغير عودة، حتى صار جده وصاحبه من الماضي الذي تحدثا عنه.

سالت على وجنته دمعة حارقة ثم رفع رأسه تجاه الباب، لم يشأ حسام أن يتحدث إليه، أراد للحظة الذكريات تلك ألا تنقطع بأسئلة تافهة أو مهمة مهما كان نوعها، كانت البوابة الخشبية الخضراء مفتوحة على

obeikan.com

مصرعيها، دلفا إلى الباب وسار عبد الله قليلا حتى وجد نفسه في الساحة الداخلية للبيت، بيت جده القديم.

على اليسار كانت توضع الأريكة التي يتسامر عليها الجميع، لا يجلس عليها إلا الكبار فقط، الشباب يجلسون في الأرض على الحصر التي صنعت من البلاستيك، يذكر في عيد الأضحى أنهم كانوا يعودون من الصلاة مباشرة للبيت، يبدأ العناق الإلزامي كنوع من الترحيب بالعيد، ثم توضع وليمة الإفطار للجميع، ويذكر أنه في منتصف هذه الساحة كان ينصب الجزار قضبانه الحديدية الثلاثة مع الرافعة التي تتدلى منها الذبيحة وهو يشرع في سلخها مفترشا الأرض بالجلد، وحين يسيل الدم يهرول الأطفال إليه، فيضعون أصابع كفوفهم الخمس عليه ويطبعونها على الجدران والأبواب بغية درأ الحسد من البيت، وبمجرد أن ينتهي من السلخ يقسم الذبيحة إلى أجزاء سبعة لكل بغيته منها، وينتهي دوره ليحاسبه الجد على عمله، يصطف الأطفال كأنهم في طابور مدرسي عند الجد لينالوا شيئا من المال في صبيحة العيد.

على يمينه تبدو الغرف الشاغرة المبنية بالطوب اللبن، والسقف المكون من السعف وجذوع النخل والكافور منهار لما نالت الأرضة منه، يتحرك بخطى ثقيلة، ذلك البئر القديم الذي نضب ماؤه، يجاور حظيرة الدجاج القديمة والفرن المقام في منتصف البيت، شجرة التوت العملاقة التي تظلل نصفه، من خلفها حديقة البيت التي جف

ثمرها ، البرتقال والزيتون، يعود ثانية للوراء حيث غرفة المعيشة والخزين، وتلك الغرفة الواسعة التي تشمل ضيوف البيت حين كانت تقام المناسبات في عودتهم من بريطانيا أو قبل رحيلهم إليها، تفوح رائحة القدماء من كل شبر في الدار، ويفوح الألم معها، ماذا جرى للسنين؟ تراها تعبث بنا كيف شاءت كأنها تستلذ بكل آلامنا، لكنها قبل الألم تمنحنا ذلك الخدر الذي نسعى إليه، خدر الذكريات لا مثيل له حين تنتشي الرأس به.

يتذكر جدته وهو يبصرها تحمل الطحين على عاتقها من الغرفة إلى النسوة الجالسات قبالة الفرن " هذا لوليمة المساء " ثم تعود لتعنف الأطفال على مشاكستهم للبط الذي يعبث في حفرة الماء لاهيا قبل الذبح، تتوعد كل واحد منهم بإخبار أبيه عن جريمته فيلتزم الجمع الصمت ثم يتبعونها فتمن عليهم بما تخبئ من حلوى في غرفة المعيشة الخاصة بها، فإن لم يكن.. تمنح كل منهم شيئا من المال ثم يخرجون صائحين فترتاح هي أو قل تنعم بشيء من السلام ريثما تخطط للتخلص منهم حين يعودون، وتعود بنفسها لتهب الطيور شيئا من الطعام وهي تسن بيدها سكينة الذبح.

يتذكر جده أيضا حين لا يجد سلواه في البيت بعد أن تقاعد من عمله وبات النساء وحدهم ينتظرون المساء حتى تتم الوليمة، يحاول فتح التلفاز بحثا عن أفلام قديمة، يقول أنها الشيء الوحيد الذي يشتهيه

بين كل ما يعرض، يذكره بأيام صباه التي يحن إليها على غير العادة، لكنه سرعان ما يصاب بالملل، فينهض متجها إلى آخر غرفة في البيت حيث يربط حماره، يسرج البردعة على حماره الأسود ذي الغرة البيضاء ثم يرفعه معه على ظهر الحمار ويخرج به من البيت، ولأنه البعيد بين كل الأحفاد كان له دلاله الخاص عند الجد، يسير متهاديا حتى يمر بمجالس أصحابه عند بئر البشمو، أو إن شاء أن يتفادى رؤية واحد منهم كان يمضي من خلال الطريق المعاكس، مارا بمقام الشيخ الباويطي، يحكي له جده عن مقام الشيخ وكراماته، وكيف كان هو الملاذ للقدماء وقت الكرب والعوز والحاجة، لقد سميت المدينة باسمه.

الطريق إلى أرض التحتانية وعر، لا تستطيع السيارات الوصول إليه إلا عند نقطة محددة فقط، كان يسير مع جده بين الدروب والأحراش يخشى التيه أكثر من خشيته البرية التي هو فيها، يذكر أمام الجد الذي لا يملك غير الابتسامة الحانية " أليست تلك أحراش أفريقيا التي حدثونا عنها في المدارس؟ " ثم يمضي الجد إلى قطعة من الأرض التي يحدها الجريد اليابس من كل جهة، لها باب خشبي محاط بفروع الشجر والأخشاب السميكة، يشبه صفيحتين من الحديد مترابطتان، وعلى الباب سلسلة وقفل من نحاس لم يأكله الصدأ، ينحني الجد ويرفع حجرا من الأرض دفن تحته المفتاح، يلج ويلج عبد الله خلفه، ثم يتخلى

الطفل عن جده ويعدو نحو أشجار الثمر المنتصبة في منتصف الأرض تماما، يضرب بتحذيرات جده عرض الحائط ثم يتسلقها ويلتهم منها ما يستطيع، وحتى إن لم يكن جائعا يكفيه أن يتسلق الشجرة ويجلس فوق أحد أغصانها يراقب الشمس من بعيد، محاولا تقليد الحيوانات التي يبصرها في التلفاز ولا يرى أيا منها في الحقيقة على أرض الواقع، يتساءل بينه وبين نفسه.. أليست هذه غابات كتلك؟ لماذا لا أرى فيها الحيوانات نفسها؟ فقط بعض من الجاموس الكسول والأبقار صفراء اللون! حتى الماعز لا يراه إلا في حظائر داخل البيوت، لم لا يتركونهم ينتشرون في الأرض.

الجد في تلك اللحظة يخرج ما في جعبته من أشياء، الشاي الأحمر الخشن، تمتاز الواحات ومطروح بهذا النوع من الشاي دون غيرها من البقاع المصرية، يقطع الجد بعض أفرع النعنع البري من الأرض، يقبل الرجال من كل حدب وصوب إلى جوار بئر الماء ثم يبدأ السمر والحديث.

ينتهي اليوم قبيل غروب الشمس بقليل وهو عائد رديف جده على ظهر الحمار إلى البيت، ليت أن اليوم لا ينتهي أبدا لما يجده من سلوى ربما لم تكن على نفس القدر في بريطانيا، لا يجد هناك جلسات السمر التي اعتادها، يعوضها تلك الجلسات أمام المدفأة، والصقيع والثلج ينسيانك كل شيء، يجعلانه ينسى أصله بالكامل كأنه نشأ إنجليزيا

بالفطرة.

والمساء حافل بالمزاح والسخرية والحديث، موقف من هذا وقصة من ذاك، نقاش سياسي محتدم والعائلة كلها في النهاية تتفق على نفس الرأي السياسي الأوحد، لا يختلفون عليه ولا يتباينون، ولكنه الآن يقف وحيدا في الدار التي باتت خاوية على عروشها ما من أحد يسكنها أو يقربها، وكأن شيئا لم يكن.

تجهم وجهه ثم خرج مسرعا من البيت كأنه لا يرغب في مزيد من الذكريات الموجعة، تبعه حسام حتى وقف عبد الله بالخارج وقد أشعل سيجارته واستند إلى مؤخرة السيارة خافيا وجهه بين يديه، وحين استعاد شيئا من رشده لم يستطع أن يخبر حسام بأي شيء عن ألم الذكريات الذي نال منه، لكنه أشار إليه بركوب السيارة وتوجها ناحية منزل السيد مصباح عنان، فقد كان جده حمدي صديقا حميما لجد عبد الله الثاني " عبد الوهاب الحجار " والذي نسق معه قبل المجيء للواحات ليعطي حسام ما يستطيع من معرفة عن تاريخ الواحات القديم.

وصلا إلى جوار البيت حيث يلهو صبية صغار بالكرة أمام المنزل، وعلى الناحية المقابلة من الشارع يبدو حانوت صغير يبيع مستلزمات البقالة العادية، أمامه اتخذ بعض الرجال مجالسهم وقد جلس أحدهم إلى جوار أنبوب صغير من الجاز يعد الشاي الأحمر الخشن الذي تمتاز

به الواحات عن غيرها.

رد الرجال إلى عبد الله التحية وقام من بينهم السيد مصباح مصطحبا عبد الله والضيف الذي جاء له خصيصا من القاهرة ليسمع عن الواحات ويسجل عنها، وما أن دلفا إلى الباب حتى ألفيا ابنه الأصغر يقف في استقبالهما وقد أمره الأب بتحضير الشاي إلى الضيفين العزيزين، وما أن جلسا حتى شرع مصباح في السؤال عن أحوال عبد الله وعن والده والأسرة في القاهرة في حي السيدة زينب وعن إقامته وحيدا في حي المعادي بعيدا عنهم، ثم توجه بالحديث إلى حسام متسائلا عن البحث الذي جاء بصدده من القاهرة خصيصا للواحات البحرية قائلا :

-ما كنت لأعرف طوال عملي بوزارة التربية والتعليم أن للواحات هذه القيمة في الأبحاث الاجتماعية والمحافل الثقافية، بالنهاية هناك من يهتم ولو كان باحثا ميدانيا لا يركض إلا خلف الحقيقة.

-(حسام متسائلا) وهل تظن يا سيد مصباح أن أغلب ما سأجد هنا هو الحقيقة؟

-دعني أصارحك الأمر.. للأسف أغلب الأحداث التي ستسمع عنها لم تدون أبدا، ولن تدون أيضا، أنت تحصل على الأمر شفاهية من الناس وتدونه في بحثك الذي تعمل عليه فأنت تعمل حينها على جهتين، الأولى

أن تنقح العمل الذي تقدمه، والثانية أن تدون شطرا من التاريخ يكاد أن يندثر مع موت الرواة الحقيقيين الذين عاصروا الأحداث، ربما لم استطع نسيان شيء من الحدث لأن أبي كان يرويه علي دائما فأنا لم أعاصر جدي لأعرف منه كل شيء، لكن أبي عاصرهم جيدا.

-(عبد الله مقاطعا) وهل تذكر شيئا عن جدي أنا يا عم مصباح.. أعني أي شيء ؟

-(مصباح مبتسما) بالطبع ولنبدأ بجدك أولا.. إن ما ذكر لي كان يبدأ من بيت جدك الثالث الشيخ مهدي الحجار قرب عام ١٩١٤م

ثم بدأ مصباح يعود إلى تلك السنة

تجهم وجه الشيخ مهدي الحجار حين حال غانم عبد المتجلي بينه وبين ابنه عبد الله الذي اختار الرحيل إلى المنيا مع الجارية التي في بيته والزواج بها هناك، لم تكن كل أساليب الترغيب والترهيب التي استخدمها ضده ذات نفع، جعل عبد الله الوساطة بينه وبين أبيه متمثلة في غانم عبد المتجلي وهو يعلم المقت الكائن بين والده وبين هذا الرجل، ويعرف أيضا ما يعول عليه غانم من سطوة منصبه كشيخ من شيوخ البلد بالباويطي.

ركب عبد الله جواده ثم أودع الجارية على ظهر الهودج بينما يقف الشيخ مهدي الحجار أمام بيته ينظر إليه بهدوء شديد ثم أردف

-لئن خرجت مع هذه من هنا فلا عودة لك ثانية ولا أبا لك أو أهل

-أنت ظالم.. تريد كل شيء ملكك حتى فلذة كبدك، ألم تدرك أن البشر كلهم سواسية لا فارق بينهم، تتصرف تصرف كفار الجاهلية، العبيد عبيد والإماء إماء، لكن الله خلقنا أحرارا، هب أنها لم تسترق أكان الأمر يختلف بالنسبة لك

-بالطبع سيختلف كثيرا، لا تستوي الحرة والجارية إنما لكل منا مقامه، ولن أرضى أن يكون من نسلي أطفال لجارية أو أمة يحملون اسمك ثم اسمي حتى وإن كان اليوم الأخير في حياتي، سل أهلها من هو أغلاهم سعرا فأشتريه بمالي، وسلهم من أكثر نسوتهم جمالا فأدفع فيها ما يطلبون وأجعلها جارية بين يدي مثلها مثل بهيمة اشتريتها إن شئت أطعمها وإن شئت أطلق سراحها أو أهديها لصديق.

-اطمئن لم يعد الناس بهذه القيمة إلا عندك.. لهذا تركت لك المكان لعلي أجد في المنيا طمأنينة وأبا يعوض لي غيابك

-لئن وجدت الأب فلن تجد الأسرة التي تحميك أبدا.. اذهب ولا تعد إليّ ثانية.

لم ينطق عبد الله بكلمة إضافية، لكز جواده وتحرك مع الهودج ليلتحق بالقافلة الراحلة للمنيا على مشارف الواحات من الناحية الشرقية، هي مسيرة ليلة ويوم واحد حتى يصل إلى هناك وستكون الواحات بمن فيها

شيء من الماضي الذي لن يعود إليه، لربما رضي عنه والده ذات يوم حين يعود بالحفيد الذي تمناه، إن أخاه عبد الوهاب لم ينجب له الولد المطلوب، مرجانة هي الحفيدة الوحيدة في الخامسة من عمرها، تكاد زوجة عبد الله أن تضع المولودة الثانية، لقد حددت العرافة نوعها، هي البنت الثانية.

تحركت القافلة من الواحات البحرية إلى الطريق الصحراوي المؤدي إلى المنيا، الواحة كلها تطرق الطريق منذ المجاعة التي ضربت الأرض وما عليها، منذ صبيحة اليوم لم يتوقفوا لالتقاط الأنفاس حتى أوشكت الشمس على المغيب، والصحراء جد واسعة، كأنها البحر العباب، إن هؤلاء الذين يقولون أن البحار تتحدث إلى راكبي السفن، تغضب، تغرقهم وتبتلعهم كما الحيتان لم يعرفوا شيئا بالمرة عن غضب الصحراء، أو حتى عن الحب الذي تكنه للمرء، هي غريبة غرابة ابن آدم، تحرقه إن ظنها ستحنو عليه، وتكون لطيفة هادئة إن هو خافها، النوق تسير فيها وتتهادى كالسفن كأنها تجد موطنها الحقيقي، أو هي بالفعل تجده، الرمال لا تعلو إلا بإذن ولا تهاجم إلا بغية أمر تخفيه في نفسها، بينها وبين الحادي ودليل القافلة علاقة وثيقة، الجبال فيها كأنها الجزر في البحار، ملاذ للتائه ومنجاة للغريق، ومأوى للذئاب حين يجن الليل ويرتديها، الصحراء أجمل من البحر، يكفيك أن تثبت قدميك عليها فلا تمانعك ولا تغالبك، الصحراء أكثر أمنا لهؤلاء الذين

تربطهم بها سابق معرفة.

ظل الحادي في مقدمة القافلة يتحدث إلى " عُناق " ناقة عبد الله التي تحمل الهودج وامرأته، بينما يصب الأخير كل تركيزه إلى الحديث بين الحادي والناقة والعلاقة الغريبة بينهما. يخاطب الحادي عبد الله قائلا :-

-الجمل حيوان غريب، ليس كبقية الكائنات، الصبر الذي يمتاز به والتحمل، يكفيه شرفا أنه لا يموت إلا مرفوع الرأس، حين الذبح، حين ينخ أرضا، تراه وهو يركض في المعارك كأنه الريح تكتسح الأرض وتثير الرمال، ولا تصدق أنه هو نفسه الذي يتهادى كنسمات الربيع حين يحمل الهودج المربوط على ظهره، استثناه الله في الخلق وضرب به المثل، ثم يأتيك بعدها أبله ليقارن بينه وبين ما لديك من دواب، أتعرف.. الجمل هو أكثر من يفهم الصحراء، فلا تصدق ما يقال عنه وعن الصحاري من روايات وأقاصيص، الجمال تعرف طريقها جيدا، هي مذكورة في كتاب الله العزيز، سمعتها في كتاب الشيخ حسني ولم استطع أن أحفظ غيرها، والحمقى وحدهم من يظنون أن الجمال لا تتكلم، إنها تتحدث إلينا ولكن الصمم الذي نعانيه يمنعنا من سماعها.

-(عبد الله مبتسما) أتحدثك عناق بما يجول في بالها؟

-بل وتهمس لي أحيانا بما لا تريد لأحد أن يسمعه، وتأمنني على سرها، كيف ذلك وقد أمنتها أنا على حياتي في هذا الطريق الطويل،

الصحراء أحيانا تمارس فعل الخيانة ضد الناس، فقط إن تجاهلوها، حدق جيدا حولك وتفهم الأمر، إن الصحراء لم تكن لتقبل أن يسكنها أحد كما الحضر، هي موطن الشجعان وحدهم، ولها غضبة شرسة إن طالتك فستحويك إلى أمد الدهر دون أن يسمع بك أحد، كفاك ذلا ألا تدفن جثتك وأن تبقى في العراء ومهب الريح للذئاب الجائعة والكلاب الشريدة.

صمت عبد الله حينها، بينما ظلت تسير الناقة إلى جوارهم وتتجشأ كأنها تطرب لمديح الحادي الذي تابع قوله " لقد كانت للنوق والجمال نوادر لم أصدقها، رويت لي من أسلاف وأسلاف أن بعضها يموت بموت صاحبه، وبعضها يموت كمدا، هم مثلنا يشعرون ولا ينطقون "

توقف الدليل وأناخ كل جمله بما عليه ثم جمع الحطب وبدأ إشعال النار، نصب بقية الرجال الخيام لراحة النساء، كان عبد الله طوال الرحلة شارد الذهن والخاطر، يتمزق بشدة ما بين الأرض التي عاش فيها وبين الأرض التي هو راحل إليها، كيف له أن يدرك أن الغروب الأحمر الذي انتظره مع شقيقه عبد الوهاب ما عاد له أن يراه ثانية، حين وقفا على قمة الجبل المجاور لبئر نبيقة، ثم أبصر عبد الوهاب تلك السجادة الخضراء المنسوجة من النخيل حتى الجبال الممتدة والتي تحد الواحة من الغرب ثم سأله

-ماذا بعد هذه الجبال يا أخي؟

-نهاية الدنيا وصحراء لا آخر لها.. ربما بعدها جهنم أو الجنة.

-حينما نكبر سنستأذن أبي ونذهب سويا إلى آخر الدنيا.

يذكر تلك الروائح التي تفوح من مطبخ البيت في الفناء الخلفي، أكلها هكذا تصبح سرابا، صورة من الماضي لن تتكرر مرة أخرى، كيف عليه أن ينسى هذا كله؟ كيف على هذا البحر الخضم من الذكريات أن يخرج هكذا من الرأس كما سكنها لأيام طوال؟ أيعقل أن تصبح هذه الدور ركاما شاغرا كمقابر الفراعنة التي يبصرون فيها زخارفهم ولا يلقون بها بالاً؟

في الوقت الذي غرق هو فيه بأفكاره كانت هناك أعين ترصده من بعيد، رجلان أسودا الوجه واللحية يرقبانه في كل حركة ونظره، نصبا خيمتهما في طرف المخيم ثم ربطا زمام الخيل في الوتد الذي ثبتاه في الأرض، أخرج أحدهما كيسا من التمر اليابس وظلا يأكلانه بهدوء وروية وعيناهما لا تفارقان عبد الله مطلقا.

دلف عبد الله إلى الخيمة فألفى جاريته التي سيتزوجها على بابها ترقب الخارج بشغف وأعين زائغة، الحزن جلي على وجهها وهي تبصر الشيء نفسه على تقاسيم وجه عبد الله، لم يعرف أيا منهما كيف يبدأ الحديث حتى شرعت هي بالكلام

-الذنب ذنبي أنا، الحق لدى والدك حين أصر ألا تتم الزيجة والآن

ما الذي حدث، أنا وأنت طريدين كما طرد آدم بسبب حواء من الجنة وهبطا معا إلى الأرض

-كفي عن الكلام، لم نرتكب خطيئة، وليست الواحات هي الجنة، وليس أبي إلهاً ليطردنا منها.. حتى وإن كان كذلك فالله دائما غفور رحيم، إنما هو متجبر يراني سلعة تعود له ملكيتها، لئن طردني من الأرض وتحكم في مأذون الواحة والواحات المجاورة فلن يستطيع طردي من الدنيا وستتم الزيجة رغم أنفه

-أما سمعت كلام المأذون.. شبه ما فعلته معه بفعلة امرأة العزيز التي تراود فتاها عن نفسه تلك التـ ..

-أنتِ تستمعين للغوهم، يخلطون الشيء بالشيء ولا يعرفون الفارق بينهما ولا يفهمونه أبدا، إنما يتحدثون ويدمجون الدين بغير فهم ليظهروا أن الحق شطر من حديثهم وهم منه بعيد، تلك امرأة العزيز.. أرادته في الغواية ولم تشأ طرق باب الحلال، الحلال بين والحرام بين، وذلك يوسف بن يعقوب وليس عبد الله بن مهدي، والمأذون يلهث لإرضاء أبي حين استطرد بحديث نسوة المدينة وتخوفه منه، وذلك جل هم أبي.. ألا تلوك المدينة اسمه في حديثها وله من الجبروت ما يخوله لفعل هذا.

-ربما لأن الإماء لا حظ لهم من الدنيا.. ربما لأنه لا أصل لهم؟

-بل لأن النسوة يهوين الحديث لا أكثر ولا أقل، لقد خلق الله البشر من آدم ولم يكن بينهم إماء ولا أحرار، استرقوا أنفسهم بأنفسهم فبئس من ارتضى لنفسه الهوان وسحقا لمن صنعه، إن أبي يعتز بنسبه كأنه من نسل بني هاشم، يكاد يحطم رأسي دائما بقوله " نحن من البطالين " لقد كانت قبيلته هي التي أبطلت دفع الجزية وطردت جباة الولاة شر طردة، نحن من المسلمين فلا جزية علينا وإن شئتم فالزكاة وإلا قرع السيوف، هو لن يقبل أن يدنس هذا العرق بنسل لا يعرف أصله وتاريخه، حتى وإن حرم ما أحله الله في أرضه.. ذلك حكم أبي وذلك ما يبصره.

-(ابتسمت الزوجة) هو يردد حديث الجباة الشهير حين تمنوا أن يذوقوا تمور الواحة للمرة الأخيرة لولا أن منعته أسرته عنهم.

-وهذه معضلته.. أنه لا يدرك أن الزمن يجري، وأن الحياة تعطي وجهها للمرء ساعة وتوليه ظهرها أياما، وأنها لا تتوقف لأحد

مالت عليه الزوجة لتطبع قبلة على جبينه ثم ركنت إلى فراشها قائلة

-فلتأخذ قسطا من الراحة غدا نصل إلى المنيا وينتهي كل شيء.

-(متجهما) نعم.. سينتهي كل شيء.

وفي الخارج ظل أصحاب اللحى يرقبون كذئب ينتظر الفرصة السانحة للانقضاض على الفريسة، لكن الفرقة التي تحرس المعسكر لا تأخذها

سنة ولا نوم، يطوفون حول المعسكر وبين الخيام تجنبا لوقوع الكوارث أو قدوم الكواسر من الصحراء حتى الصباح، في هذا اليوم يختفي القمر تماما من كبد السماء، كأنه يشعر بما هو قادم من أيام ثقال.

جاء الصباح، الشمس لا تحرق في هذا اليوم، هي تستحي السطوع وسط كومة كثيفة من السحب، كأنها تعرف ما ستؤول إليه الأمور في الأيام القادمة، خمدت النيران، وامتطى الناس رِكابهم، تتهادى النوق والهوادج فوقها حتى لاحت للبصر حاضرة الصعيد، تظهر على مرمى البصر بيوت تقع إلى الغرب من النيل في محافظة المنيا، وقد بدأ عقد القافلة ينسل فردا تلو فرد، تماما مثلما التحم في الخروج من الواحات، وتحرك عبد الله بجواده يقود الهودج بعد أن ودع الحادي صوب الطاحون المجاور للنهر عند الساقية حيث البيت الذي استأجره، وهناك على مرمى البصر للبيت تلك الأعين الحمراء التي تنتظره على أحر من الجمر.

دخلت الجارية إلى البيت وخرج عبد الله، ألقت عليه نظرة غريبة كأنها الأخيرة، كانت الشمس على وشك المغيب في يوم استحت في الغالبية منه أن تظهر للعيان، وصل عبد الله إلى جوار الطاحون، يسأل عن مأذون المدينة، دله أحدهم، كان يمضي حيث بيته بخطى ثقيلة، كان يود لو ينهي الأمر في الوقت نفسه، طمأنه المأذون أن لا داعي للعجلة وفي الصباح سيزوره المأذون بالشهود لإتمام الزيجة.

يعود إلى البيت، ألفى الجارية متشحة بالخرس خلف الباب مخضبة بدمائها، احتبس الصراخ في حلقه، إلا أنه أبصر الرجلين اللذان تبعاه في القافلة يحملان الخناجر الغارقة بالدم، نهض.. قاوم بيأس ، اخترق الخنجر صدره ثم تبعه الآخر في جانبه الأيمن، فطعنة ثالثة في القلب وتوالت الطعنات التي ما عاد يحسبها تزهق روحه وتهرق دمه على الأرض.. تمت الجريمة.. ورحل القتلة في هدوء.

أشرقت الشمس على الجلبة والصياح، لكنهما لم ينتظراها، كانت خيولهم تشق الصحراء كأنهم يهربون من الدم الذي سفكاه البارحة، كانا في منتصف الطريق في الوقت الذي انقلبت الأرض رأسا على عقب بحثا عن القاتل، يضرب المأذون كفا بكف وهو يعلم أن الرجل كانت له النية في الزواج، والموت له أقرب مما نوى.

في صباح اليوم الثاني ..

تكاد الشمس أن تشرق بينما يجلس الشيخ مهدي في فناء البيت، أمامه صحن من التين ووعاء من اللبن الطازج، يبتسم على مضض وهو يعلم أن الهدوء لن يدوم لفترة طويلة، ليس لأن أطفال الخدم سيحيلون البيت إلى معركة شرسة، لكن للقلق الذي اعتراه من العائدين في الصباح، أيعود المرتزقان اللذان أرسلهما؟ لعلهما فشلا في المهمة التي كلفهما بها، أو تراه يتمنى، أيرق القلب أخيرا ويعفو عن عبد الله؟ ماذا عن حديث المدينة؟ سيدنس النسل النقي بعد كل هذا العمر.

يطرق الباب فتفتح الخادمة لتبصر رجلين يبدو الإعياء ظاهرا عليهما، يطلبان الشيخ مهدي، تدخل الخادمة لتعلم سيدها، ينقبض قلب الرجل ثم يخفق بشدة، يخيل إليه وللخادمة أنه سيخرج من صدره لفرض الرجفة التي تعلوه، يستند إلى عصاه ذاهبا للباب، يدعوا بكل ما أوتي من قوة ألا يكونا حاملي الخبر، المسافة إلى الباب طويلة للغاية، ليتهما يخبرانه بعجزهما عن المهمة، أو ليته رسول من ولده يحمل رأسيهما ويخبره بأن الزيجة ستتم أو أن ابنه حيا لم يمت، يفتح الباب.. يحدق فيهما ثم يسأل ببرود ينافي ما كان يشعر به ظاهريا وإن كان باطنه بالفعل يحترق

-هل تم الأمر؟

-نعم يا سيدي تم ولم يعرف أحد هويتنا

-أمتأكدان أنهما في عداد الموتى؟

ارتبك القاتلان ثم قالا في صوت واحد

-نعم كلاهما مات منذ تركناه

ثم تفاجأ كل منهما بالسؤال الذي طرحه الشيخ عليهما

-صفا لي كيف قتلتماه؟ أقاوم؟ أم استسلم بسرعة لكما.. للموت؟

وصفا للشيخ كيف أريق دم فلذة كبده ثم رحلا، لم ينبس طوال الحديث

الذي خاضاه ببنت شفة، تبدل لون وجهه ثم سقط على عتبة الباب.

ظل الشيخ مهدي لليوم الثالث في سريره يعاني الحمى وهو يصيح باسم عبد الله، الكل يشفق عليه رغم قسوته في فعله معه، كان عبد الوهاب يتساءل في نفسه ونساء البيت يجتمعن إلى جواره خلف الجسد المحطم على السرير، أهكذا تكون نهاية هذا الجبار؟ يموت كالبعير في فراشه بعد أن كان الحي يهتز لصوته. كيف هي الحياة حين تمسي تافهة لهذا الحد؟ وكيف يتكالب عليها الناس؟ ألم تكن قسوته المفرطة هي التي دفعته لقتل ولده؟ لماذا يشعر بالندم بعد فعلته؟ بل لماذا قام بها إن كان الندم هو النتيجة الوحيدة لها؟

يخرج صوت الشيخ مهدي بوهن شديد

-عبد الله يقف على عتبة الباب يأبى الدخول، أيأنف وداعي أم تراه لازال غاضبا مني؟ أقبل إليّ يا ولدي.. دعني أحتضنك قبل الموت.. بدد غضبك.. لا أفرغ فيّ غضبك كله، لا يجب أن تموت به يا بني. يجب أن تغفر للرجل حين يصبح على شفا الموت.

ارتفع نحيب النسوة في الغرفة ودعت إحداهن له بطول العمر والشفاء من المرض ثم قطع البكاء دعائها، ويتابع الشيخ مهدي هذيانه كمن لا يبصر أحدا.

-ليس هذا هو قدري الذي استحقه، المكان مظلم للغاية، أبي أورثني

قوته وقسوته، صوته إلى الآن يصك أذني، وسياطه تلهب ظهر العبيد، قتل عبده ثم قام بدفنه تحت شجرة البرقوق، ذبلت الشجرة في تلك السنة، لازلت أسمع صياح العبد وأنينه وهو يجلد، جلده لأنه سرق رغيفين من الخبز أيام المجاعة قبل موعد انتهاء العمل، طلب مني الطعام فأبيت، والشمس تلفح الوجوه، كان غارقا في عرقه يزدرد لعابه بقسوة، سألني قبل الموت شربة ماء.. شربة ماء واحدة بخلت بها عليه، كان أول قتيل لي ..

بدأ السعال يقطع حديث الشيخ ثم انتفض جسده وأحيل لون وجهه للأحمر حتى ظن الجميع أنه ينازع الموت، تسارعت أنفاسه ثم هدأت وعاد لطبيعته من جديد

-ظل يلعن أبي ويلعنني معه في آخر أصوات خرجت من قلبه، كان أبي يضحك بقوة ولا يكترث له فلقد كان من رعاة الوالي ومخلصيه ولم يكن أحد يستطيع المساس به مع سادة الباويطي بعد المجاعة التي ضربت الواحات بأسرها، مات أبي حين دهسته الثيران في هوجتها، سحقته تحت أرجلها وكلنا نبصره ولا نستطيع أن نقدم له شيئا، مات عاجزا عن الحركة وعاجزين عن إنقاذه من تحت حوافرهم. لماذا لم تنل مني اللعنة نفسها؟ لماذا لم أمت أنا تلك الميتة الشنيعة؟ لقد أبقتني دعوة العبد حتى أشهد موت ولدي، ومن قتله؟ قتله العبدين اللذين استأجرتهما، كأنني أعطيتهما فلذة كبدي ثمنا بخسا للحرية

من سيدهما.

اتسعت عيون الحاضرين كلهم في ذهول من قول الشيخ الذي بات يفاجئهم في اللحظات الأخيرة من عمره، لم يلمس منهم أحد ذلك الإنسان بداخله، لقد خرج متأخرا عن العادة، لكنهم يهابونه حتى على فراش موته، يخافون الاعتراض أو التعليق، كل أعماله حق مشاع له وليس لأحدهم أي حصة من الاعتراض.

تعلقت عيناه بسقف الغرفة وشخص بصره لبرهة ثم ارتفع صدره مرات ومرات بهدوء وتوقفت أنفاسه.

ارتفع العويل والصراخ بقوة ثم غطى عبد الوهاب جسد والده وأخرج النساء الباكيات إلى الخارج، لم تستطع عيناه أن تذرف دمعة واحدة أو حتى أن يحرك لسانه بكلمة واحدة، لقد كانت حواسه كلها واجمة كتعبير وجهه.

مرت ساعات ودخل المغسلون إلى غرفة الشيخ ثم وضعت الفُرُش على الأرض، ثم علا النداء في المساجد معنا وفاة الشيخ مهدي الحجار، وجاء المعزون من كل حدب وصوب، انتهى الغسل سريعا وحمل الجسد على الأعناق في صمت رهيب لا يشقه إلا عويل النساء بالداخل حتى تحرك الجسد صوب المدافن في الجنوب.

قُبر الشيخ وتسلم عبد الوهاب العزاء فيه، لا يؤازره إلا حمدي عنان

صديق طفولته وتوأم روحه، من نفس نسل البطالين الذي عاش الشيخ مهدي معتزا به طوال حياته وحتى الأيام الأخيرة التي لفظ فيها أنفاسه.

لا تنتهي أيام ثلاثة من موت الشيخ حتى تضع زوجة عبد الوهاب مولودتها الثانية.. سعدية عبد الوهاب الحجار، كأن الموت يسلم الميلاد أو أن الحياة أشبه بسباق تتابع، واحد يسلم الآخر ثم تمضي وكأن شيئا لم يحدث مطلقا.

obeikan.com

الفصل الرابع

الواحات البحرية – ساحة أبوشتي ٢٠١٤م

أبصرت عين عبد الله المسجد حديث الإنشاء غير المكتمل، تم البناء على نفقة السكان وبسواعدهم، نظر بتمعن.. البيوت هنا متباينة ما بين القديم المتهالك والحديث المتطاول في البنيان، تطلع شرقا.. رأى السدرة مقطوعة السيقان والفروع، ما عادت تختال كما الأيام الماضية، طاف بخلده رجمهم لها كي ينهال فوق رؤوسهم الثمر، روت له أمه أنه قديما في أواخر الستينيات كان في هذا الميدان تمثالين على هيئة الأسد، يحتويان نقوشا فرعونية، ولم يكن يدرك أي من السكان قيمتهم حتى صادرتهم هيئة الآثار، وأنهم في الصغر كانوا يمتطون التماثيل وكأنها الخيول ويحاكون تصرفات العمدة ويقلدونه في حركته ومشيته، في كل شيء، روت له أن هذا الميدان كان أشبه بميدان التحرير في القاهرة من حيث الأهمية، فبه يلتقي العمدة مع الناس، وبه أيضا تتحرك الجماعات للأمر الجلل، وإليه يلجأ المتخاصم والسائل والضعيف، هو أيضا معرض للخيلاء في حفلات الزفاف بعد

أن يمضي الركب قادما من منطقة السور ثم الزاوية السنوسية منتهيا بأبوشتي بعد أن يعبر منطقة البركة، طلب من حسام أن ينتظره قليلا عند الساحة بجوار السيارة ريثما يسأل إن كانت جدته في البيت أم رحلت مع أحدهم في زيارة عائلية، تحرك قليلا إلى جهة الغرب حيث غرفة منهارة كانت تسمى سابقا غرفة السلاح ثم سار في الدهليز حتى وجد بابا خشبيا أزرق اللون يستند إلى جدار عتيق، دفع الباب برفق ثم دلف إلى ساحة البيت الداخلية ومنها تسلل إلى غرفة الحطب، صعد الدرج حتى وصل إلى باب المنزل الأساسي، ألفى جدته عند الباب وقد هالها المنظر وألجمتها المفاجأة مع نظرات الشاب المطرقة أرضا، لم تصدق أن الزمان قد يجود يوما ما بزيارة كتلك، احتضنها ليفرغ شوق السنين وأوجاعها، لثمت جبينه ثم دخلا إلى المنزل.

-مر وقت طويل يا عبد الله

-الدنيا تتلاعب بنا، لكنني عدت

-عدت وعادت معك بهجتي، منذ زمن طويل لم يطرق عليّ الباب أحد حتى ظننت الناس ماتوا في الخارج

-(مبتسما) بل أحياء لكن الحياة تغير فيهم ما تغير في هذا المكان

-دعك من كل هذا لقد اشتقت لجلساتك والشاي والكعك، دعني أحضر لك منه شيئا.

-لي صديق بالخارج.. جاء معي من القاهرة يود رؤيتك؟

-فليتفضل إذن.. ودعني أعد له واجب الضيافة المطلوب

تحرك عبد الله صوب الغرفة العلوية، أشار لحسام بالمجيء من أعلى وتابعه بنظره حتى دلف من نفس الباب الخشبي ثم صعد معه إلى السطح، بدأ عبد الله يعرفه بالمكان.. يتحدث ويشير إلى كل نقطة كمرشد يصطحب فوجا في رحلة سياحية، هنا مسقط رأسه، أصبحت عشا للحمام، كأن كل ما يولد في الغرفة معرض للطيران والرحيل، ثم يعود مرة ثانية إلى نفس المكان كأن حبالا تشد إليه الوثاق، خرج من الغرفة إلى البراح الفسيح على سطح المنزل القديم بخطوات حذرة، السقف آيل للسقوط، إنه يفوقه عمرا لكنه يحمل بين ثناياه رائحة الساكنين، وفوق رأسه يحمل ثقل الزمن.

زمان.. إننا نقول الكلمة لنستدل بها على ما يجرفنا إليه الحنين، الذكريات الجميلة التي تسكن في خيالنا بعد أن أضحت وأضحى أصحابها بعيدين عن العين، هناك في نهاية السقف قد هوى جزء كان يغطي ورشة جده التي مكث فيها وقتا طويلا، المخزن الذي جاور المطبخ، لم يكن يفرغ أبدا من السمن والدقيق والحبوب التي تغذي البيت كله طيلة الشهر، يتذكر الدرج الذي كان يصعد به إليه، بكاء الجميع حين تم هدم البيت، إن لكل حجر فيه قصة قديمة، يحمل يدا من هؤلاء الراحلين عنا، وعلى شرفة السقف تغطي رؤوس النخيل

المسجد السنوسي الذي انهار بدوره ولم يبق منه إلا المئذنة، تشهد على رحيل الناس وهي على حالها لم ترحل.

سحبه نداء الجدة من خيالاته التي خرجت من المكان ليهبطا إليها ويجدا الكعك المحلى بالسكر المطحون وأكواب الشاي على صنية نحاسية عتيقة، وبراد مزركش باللون الأبيض والأخضر والأكواب نفسها الصغيرة التي تمتاز بها الواحات في الأفراح والمناسبات.

تجرعت هي الشاي وعينها لا تفارقه أبدا، لا تصدق أنه أمامها بعد كل هذه المدة الطويلة بينما راحت عينه هو تجول في المكان وتستعيد ما كان فيه من ذكريات وحياة، الجدران أصبحت باهتة يكسوها البرود كسجن كئيب، في الماضي كان برودها لا يخيف كما يفعل الآن، القبور تصبح أكثر طمأنينة من البيوت التي يهجرها أصحابها، هنا أيضا عبث الزمان بساكني البيت، ولت أيام المجد والعز بغير رجعة، يتساءل في طيات نفسه " لماذا يشتاق المرء منا للماضي أكثر مما يفكر في المستقبل والحاضر، وهل سنفكر في لحظات الحاضر الحالية حين تصير شطرا من الماضي القريب ثم نبكي على ما آل منها للزوال؟ هل القضية في الزمن نفسه أم في الناس الذين كانوا يعيشون فيه؟ أم أن هذا الحنين الجارف كله للاثنين معا؟ " .

خرجت معها صبية صغيرة سمراء اللون مجعدة الشعر، وقد كان واضحا من اللكنة التي تتحدث بها أنها ليست من الواحات البحرية،

مالت الجدة قليلا بجسدها إلى اليسار ثم أخرجت من ثوبها بعضا من المال إلى الصبية الصغيرة التي خرجت رأسا إلى بيت العمدة القديم المقابل للبيت الذي تقطن فيه الجدة، تابعها حسام بنظره مبتسما والخجل يملأ جسده، هو يفهم قدر الحساسية التي يشعر بها أهل الواحات إذا ما جلس غريب بينهم أو جلس بالقرب من مواقع نسائهم، إلا أن الجدة قد بددت كل هذا الخوف والخجل بنظرة حنان من أم وجدت ولدها بعد ضياعه

نظرت إلى عبد الله ثم قالت

-ما الذي جاء بك بعد كل هذه السنين، لقد كنت تمقت الواحات بما فيها.

-إنه الحنين للقدم يا جدتي ليس إلا، اشتقت فيها القديم الذي روي لي عنها لا الذي يحدث فيها الآن، إنما أنشد الراحة

-الراحة يا بني ليست في الماضي.. الماضي مملوء بالوجع كما هو مملوء باللحظات السعيدة والذكريات التي لا تنسى.

-إنني أبصر الجدران وهي تحدثني وأنا أريد أن أسأل عن ما جرى خلفها، كم شهدت من حزن وفرح، أريد أن أعرف كل شيء.

-البحث في أصول الأسر والتاريخ شيء حميد، لا يغرنك قول هذا الذي يدعي أن التاريخ لا يهمه قدر ما همه كينونته في هذه اللحظة، مثل

تاريخ الإنسان كمثل جذور الشجرة وأصلها كلما كان الجذر قصيرا كلما كان طرحها سيئا، وظلها شحيحا، وكلما ثبتت جذورها في الأرض صار ثمرها يؤتي أكله في كل عام، وظلها يصير مد البصر، يستضيف الغادي والراحل.

ساد الصمت بينهما، هي رغم كل شيء لازالت تحتفظ بحكمتها القديمة، تابعت قولها بعد برهة الصمت التي كانت

-إنني أشعر بوحدة شديدة هنا، وجدك كعادته يتكاسل ولا يفي بوعده لي، إنني انتظره عند الشرفة، المطبخ القديم والمخزن الملحق به قبل أن ينهار، إن اليوم يا بني يمضي ثقيلا وطويلا، يشبه الليل النهار.

-ولقد جئت اليوم لهذا أيضا.. أريد منك كل شيء عن جدي وجده وجده إن استطعت القول

-(الجدة مبتسمة) ما أذكره يعود إلى ما قبل خروج السنوسيين من الواحات بعامين اثنين فقط.. أي أنني لا استطيع تحقيق ما تريد

-(حسام بلهفة) أي في العام ١٩١٨م هذا جيد.

نظرت الجدة بتعجب لقوله ثم وجهت بصرها إلى عبد الله الذي قال

-هذا غير مهم يا جدتي.. المهم ما تعرفينه

ابتسمت الجدة قائلة : حسنا ولك يا بني ما أعرفه.

وبدأت تسرد لهم وقائعا في قرية القصر منذ عام ١٩١٨م

يجتمع الجميع حول العمدة طريح الفراش، لم يكن يعتريه أي مرض، إنها الحسرة على زوال الملك حين وطئ الجيش السنوسي أرض الواحة، لم يكن له أي نوع من القدرة لا هو ولا رجاله على المقاومة، كيف ينسى وقد أخذوه رهينة رغم أنفه وحين تركوه يعود إلى بيته ذليلا مكسورا، لم يغن عنه رجاله ولم تفده سطوته في شيء بالمرة، لولا مجيء سيدي أحمد الشريف شيخهم الذي فك وثاقه، ولم يغفر للجنود عبثهم أو ظلمهم لأهل الواحة فأطلق سراحه، هؤلاء القتلة لهم باع طويل في الكر والفر اثر اشتباكاتهم مع الجيش الإيطالي في الصحراء الليبية، لكنهم آثروا الهروب إلى الشرق، هنا حيث لا وجود لأي قوة عسكرية بعد طرد الحامية الإنجليزية الموجودة بالباويطي، أصبح لهؤلاء القوم حق مشاع في الأرض و الحرث، تنال أيديهم كل ما تقع عليه من خيرات الواحة والكل يتشح بالخرس من خوف وضعف، لا أحد ينسى كيف أذلوا عبد الحكيم وأولاده حين أبى أن يسلمهم بقرته الوحيدة التي يقتات وآل بيته على ما تجود به من لبن، ضرب عنصرا من عناصر جيشهم وأهانه، تذمر الرجل ورحل عنه متوعدا إياه بالموت، في الليلة نفسها عاد الحرس حطموا الباب، قاومهم أطلقوا عليه الرصاص، أصابوا ساقه، ثم جاء الذي ضرب منهم فربطه في ظهر الجواد من ساقيه إلى السجن، وفي الصباح جروه بالخيول وسحلوه في الطريق حتى سلخ

جلده من فوق جسده.

جعلوا منه ومن آل بيته عبرة لمن يعتبر، بات الخوف سيد المدينة المطاع، ثم قرر السنوسيون أن يستوطنوا المكان عوضا عن أرضهم المسلوبة في الغرب، فبنيت الزاوية السنوسية ثم بدأ الرجال ينشرون مذهبهم في أهل الواحة مع مقدم سيدهم الذي لم يرضه الوضع الحالي فحكم بين الناس بالعدل وساوى بينهم وصار خراج المدينة نصفه للسنوسيين ونصفه لأهل الواحة.

فرح الناس كثيرا بزوال هذه النقمة وبمقدم رجل عادل إلى البلدة يعيد الأمور لنصابها الأولى، وكانت حسرة العمدة لا توصف إذ ضاعت هيبته مع كل شيء كان، لم تعد له اليد العليا في الأمور والقرارات، وفرغت ساحة أبوشتي من مريديها ليبصر هو من شرفات قصره المهيب على مرمى البصر ساحة الزاوية السنوسية وهي متخمة بالرجال، مدججة بالسلاح وطالبي الحاجة والمتقاضين ضد بعضهم البعض، أصبح ملكه هشيما تذروه الرياح وبات يتساءل عن اللعنة التي أصابت أسرته كلما اعتلى واحد منها كرسي العمودية، الموت على مشنقة أو الموت حسرة على ما ضاع من ملك.

قال بوهن

-إن أقصى ما يؤلمني أن الملك سيزول بزوال حياتي طالما أجلاف

الصحراء أولئك يرتعون في الواحة، حتى وإن ملكوك يا ولدي فلا شيء تستطيع أن تحكم به مطلقا.

-دعك من هذا يا أبي، لازلت سيد البلد والآمر الناهي فيه

يبتسم الشيخ في وهن

-ومن قال لك أني سيدها، هب أني حكمت على أحد بما لا يرضاه، سيتوجه إليهم وسيقفون بصفه ظالما أو مظلوما نكاية في العمدة مسلوب الإرادة، ولو أبيت ذلك سيقومون بفعل ما هو أبشع لإجباري، ليس هناك شيء على الأرض أسوأ وقعا من الذل حين يعترض سبيل الرجال

-لن يدوم الحال طويلا.. سيخرجون في يوم ما وسيحمل كل خسيس حمله فوق عنقه حين نحاسبه

-(مبتسما) ألم تتعلم الدرس بعد يا بني؟ ستحاسبهم لأفعالهم التي قاموا بها حين وجدوا منفذا لها، ولأنهم لم يحسنوا التفكير فسيكون وبال أمرهم جلل، لكنك تنسى أنك مثلهم بشري.. لك أوقات ضعف ووهن فإن اتكأت على مواطن قوتك وتجاهلت مواطن الحب فيك فستصبح أسوأ منهم، وإني أعرف الموت جيدا، لقد أعددت له العدة منذ وقت طويل وأنتظر قدومه، لم أظلم في حياتي كلها شخصا واحدا لأنني ذقت الظلم وأعرف طعمه، تربيت عليه وأنا أصرخ حول جسد

أبي وإخوتي وهم معلقون على المشانق.. إياك والظلم يا سليمان فإنه وخيم العاقبة.

مات عمر الزينبي عمدة القصر وكانت تلك الكلمات هي الأخيرة له

جاء النجار وعلى عادة الأسرة صنع تابوتا ضخما يليق بالعمدة الراحل، النساء يولولن على ما مضى وسليمان يجلس في وجوم وقد تخضبت لحيته بالدمع، يحيط به شيوخ البلد في الخارج وعمد القرى المجاورة الذين جاؤوا للعزاء، حتى الفصيل السنوسي المسلح أرسل من ينوب عنه.

انتهى المغسلون من عملهم، رفع التابوت على أعناق الرجال واتجهوا به إلى المقابر التي تعلو التبة خلف عين شاور، دفن الرجل في قبره، ووقف أقرباؤه صفا واحدا يتقبلون فيه العزاء في مشهد مهيب اجتمعت فيه قرية القصر بأسرها حزنا وكمدا على حاكمهم.

تمضي أيام ثلاثة وتضع يمن مولودها الأخير حمدي، كأن الموت يسلم الميلاد أو أن الحياة أشبه بسباق تتابع، واحد يسلم الآخر ثم تمضي وكأن شيئا لم يحدث مطلقا.

في ١٩١٨ م وصلت قوة من الجيش الإنجليزي إلى الواحات البحرية، كان سيدهم في تلك الآونة قد غادر الواحات والصحراء الغربية بالكامل بعد الهزائم المتلاحقة التي نالها جيشه إثر صدامه مع

الجيش الإنجليزي، الرصاص كان ينطلق في كل اتجاه، يركبون مدرعة حربية لا تؤثر فيها النيران ويصطادون كل من يحمل سلاحا في البلدة، لم يكن هناك فريسة أسهل من فلول الجيش السنوسي الذين تساقطوا واحدا تلو الآخر، احتمى كل واحد من السكان داخل بيته، الكل أبى في هذا اليوم أن يفتح الأبواب، الكل اليوم يفر من أبيه، هذا قول سليمان وهذه نبوءته بشأن الجيش السنوسي، أنه وإن طال مكوثهم وحالفهم الزمن فالنهاية السوداء قادمة لا محالة، وقد صارت النبوءة حقيقة يراها المرء رؤيا العين، يطاردونهم كما يطارد الأطفال الجراد في الحقول ومن يسقط في يدهم يمزقوه إلى أن يرجو الموت، سعوا خلفهم حتى خرجوا من البلدة، ثم سار الجميع إلى الكابتن ويليام قائد الحملة الإنجليزية ليقدموا فروض الولاء والتهاني والفرح بالتخلص من هؤلاء الذين كدروا على الكبراء صفو ملكهم.

لم يكن فيهم سعيدا أكثر من سليمان، راح يطفئ نيران شماتته في الذبائح والولائم التي قدمت كإعلان للفرح في ساحة أبوشتي، لقد أصبحت الصحراء قبرا لأولئك الهمجيين أخيرا، الصحراء إن خرجت لها بغير عدة كما خرجوا ستبتلعك كما ابتلع الحوت يونس، لكنها لا ترحم ولا تغفر من يأتي إليها ظالما أو حتى إن كان مظلوما جاهلا ضل فيها السبيل.

دانت له الأرض بما عليها وبات أمره لا يجارى، وآلت له خيولهم التي

تهاوت من فوقها الأجساد بالرصاص الإنجليزي، وباتت الحامية الإنجليزية فوق قمة ذلك الجبل شرقي الباويطي وفي الجنوب الغربي من منديشة كدرع يمنع قدوم أي أشاوس تسول لهم أنفسهم استباحة الشطر الغربي من الصحراء الغربية بالكامل.

ثم بدأ سليمان يستعرض قوته، زاد عبيده وجواريه في الواحة، ثم جدد ديوان والده الذي بدده السنوسيون في فترة مكوثهم، وأمر الناس فبنوا ديوانا جديدا يليق بالعمدة كانت مجالسه من الصوف المدبوغ باللون الأحمر ، والموضوع على مصاطب بنيت من الطوب اللبن، يتخللها أعمدة من جذوع النخل ومغطاة بسقف من الجريد في مقدمة بيته، يستند مجلسه إلى نوافذ القصر من الناحية الجنوبية، بينما كان المدخل من الناحية الشرقية لا يحجب الشمس عنه إلا جذوعا من الشجر وضعت خصيصا لذلك، و قد وضع على أرضية المجلس بسط من سعف تمتد حتى كرسيه الخشبي الضخم، منقوش على الكرسي رسومات وزخارف عدة ، كما كان كرسيه الأعلى بينهم كدليل على بأسه وعلو يده عليهم.

ولم يكن يرضى بأن تكون له وحده السلطة فجعل من أولاده شيوخا للبلد، جيلاني وعبد الصمد وغنام وسعد رغم أنف الشيخين الباقيين في قرية القصر، وعن العرس الذي أقامه لأولاده ظل أسطورة تتغنى بها الواحة، مذابح للبقر استمرت أكثر مما استمرت أفراح الناس

برحيل الجيش السنوسي، تحركت الهوادج في زفاف أولاده كأنها قوافل الحج تخرج صوب الحجاز، الذهب الذي دفع مهرا لأولاده كان حديث القرية لفترة كبيرة، ورغم كل ذلك فله من الخصال أغرب مما يبصر المرء فيه، أجبر الناس على العمل في أرضه ليل نهار عوضا عن عمل السخرة بأوامر حكومة القاهرة المجحفة والتي أتيح للعمدة وشيخ البلد أن يختاروا من فيها، لم يكن ينازعه الملك في الواحات بأسرها غير عبد الحميد عمدة مندیشة وإن كان الأخير لا يقل عن صاحبه في طغيانه وسطوته، لم يكن سليمان مثل أبيه، إنما كان داهية بكل ما تعنيه الكلمة، أورث أهل المدينة الخوف، وسقاه لهم في كؤوس مرة المذاق.

اكتمل بناء الديوان الذي بات سليمان ينشده، أمر سليمان أحد العبيد أن يصعد للتل الذي يعلو ساحة أبوشتي وأن يعزف بمزماره ما يدل على أن العمدة سيجلس مع الشيوخ لأمر جلل، وقد هبط من منزله وسار بهدوء متكئا على عصا ليس في حاجة لها، إنما الكبر والخيلاء هما ما يزينان مشيته في هذا الوقت، حليق اللحية، يرتدي جلبابا رماديا وعباءة سوداء، وعمامة بيضاء فوق الرأس ملتفة حول قبعته الحمراء، يمتد شاربه تحت أنفه كث عظيم يزيده مهابة على هيبته التي هو فيها، نهض أعيان البلد وشيوخها إجلالا له وهو يدخل عليهم الديوان ويسير في روية وهدوء كملك منتصر.

بدأ سليمان حديثه للشيوخ قائلا

-إني أحمد الله وأثني عليه إذ خلصنا من شرذمة الفئران التي أقبلت من الصحاري ولم يكن لها هم إلا امتصاص أقواتنا التي نجمعها بكد، حتى زعيمهم الذي قال عنه الغوغاء أنه عادل، أي عدل ينشد في مقاسمة الفقراء أقواتهم وأنت آت من أرض غريبة ولا ملك لك هنا، وقد أرسل الله لنا جندا من مصر يدحرونهم دون أن تسيل منا قطرة دم واحدة، إنها عناية الله حين تتجلى أمام أعيننا، إن إيماننا بالله ضعيف جدا، لا نصدق في الأمور إلا حين نراها بأم عيننا وكأننا ننتظر من الله أن يبرهن على قوته التي لا شك فيها ولا خلاف على وجودها.

-(الحضور) ونعم بالله.

-لم يكن لهم بيننا أرض ولا أصل ولا فرع يستندون إليه، كانوا كالمرض اجتاحوا أرضنا وسكنوها حتى جاء الدواء بأمر من الإنجليز ليرميهم إلى الصحراء من حيث أتوا، فلنحمد الله على نعمة الإنجليز فلولاهم لظل هؤلاء يعيثون في أرضنا فسادا ويحيلون جنتها إلى رماد.

-(الحضور) حفظ الله ملكهم.

في تلك الآونة بدأ الناس يتوافدون على ساحة أبوشتي ليستمعوا إلى قول العمدة ورأيه، وليعرف كل صاحب حق حقه، وحقيقة الأمر لم يكن حضورهم إلا خوفا من بطشه، ورغبة ملحة في ألا يقع أي منهم تحت طائلة الغضب، أن يحضر المرء حديث سليمان يعني للرجل أن يحفظ

لنفسه مقاما.

تابع سليمان قوله للناس

-خذوا مني الأمان، فلا يظلمن أحدكم صاحبه إلا نصفته ولو كان خصمه ولدي، ولست من السنوسيين في شيء، لن أقتل منكم أحد، فبين الموت وبيني طريق سفر طويل لا يعلمه إلا الله وحده.

ارتفع صوت الناس في الميدان بتحية العمدة والثناء عليه، وأقبلوا على بعضهم يتوسمون خيرا فيما هو آت من أيام تمر عليهم، إن الجيد من الأيام لا يأتي إلا بعد مرور الأسوأ، هكذا هي سنة الحياة، دوما تشرق الشمس بعد الليل المظلم.

ثم قال الشيخ يماني

-وبم يكون الفضل للعمدة في كل هذا، بل لابد أن يكون كبيرنا كما هو في الواحات الأخرى، أرى أن يكون للعمدة الثمن في كل بئر ماء جديد في القصر بأكملها، لا يحق لأحد المساس به، وكل بئر ماء ليس للعمدة شطر فيه يحق لأي كان أن يشارك صاحبه عليه بالقوة ولا حق له في مظلمة.

ابتسم سليمان لقول يماني وعلت الهمهمة بين الناس، بينما باتت عين الشيخ عابدين تقدح الشرر، قد نال منافسه عند العمدة ما فشل هو في الحصول عليه، وبات الأمر على المحك، إن هو عارض الأمر

obeikandl.com

سيوافقه الناس على ذلك، لكن الرعية دائما غوغاء، هو بنفسه قد اختبر قدرتهم على تحمل السنوسيين ففشلت ريحهم وآل أمرهم لشيخ السنوسية، وحين جاء الإنجليز وجد أن أول من هتفوا باسم السنوسية هم الذين عاونوا على التخلص منهم، لكنه سرعان ما حسم الأمر، أن يكون متأخرا في عرضه خير من ألا يعرض شيئا بالمرة، وأن يدخل مع العمدة في حرب خاسرة قبل أن تبدأ، فقرر بدوره أن يدخل الصراع قائلا

-وإني والله أرى ذلك أيضا، لابد أن يكون للعمدة فضل على غيره من الناس، لقد كنا نعطي السنوسية ونحن في غاية الضيق وهم يأخذونها عنوة أما اليوم فنحن نعطيك عن طيب خاطر، وليس عطاء بما يفهمه الناس في معناه العام، إنما هو حق مشاع لك، وإرث هذا الحق يعود على كل من جلس على كرسي العمودية من بعدك.

بدا الوجوم على الناس في الساحة جليا، لم يعد في الأمر إلا أن يعلن سليمان موافقته على الأمر، إلا أن رأيا واحدا غير متوقع هو من عارض الأمر برمته، لقد وقف جيلاني ابن العمدة وأحد الذين حازوا لقب شيخ البلد في الآونة الأخيرة قائلا

-هو ليس حق مشاع يا شيخ عابدين، ولا هو إرث لنا ولا ملكا حزناه يا شيخ يماني، إن هي إلا إتاوة من نوع مختلف تفرض على الناس، لو أنهم قبلوها لرأيتهم في الساحة يهتفون ويهللون بالأمر

نظر الشيوخ إلى الساحة بغضب والناس فيها واجمة، ثم علا هتاف أحدهم " بل نتنازل للعمدة عن أولادنا لو شاء " ابتسم يماني وعابدين بينما نظر إليهم جيلاني وكله احتقار لما فعلوه متابعا

-لو أنه فعلا يرضى بذلك فليأتي بولديه ليذبحا في الميدان علنا أمام الناس، إنه يشتري لنفسه مقاما عندنا، لا أحد يعطي من ملكه راضيا لأحد إلا مجنون أو جبان.

قاطعه سليمان في ثورة عارمة

-تأدب في الحديث يا ولد، يبدو أنك نسيت، لا ترفع صوتك في حضرة العمدة، ولا تذم محكوميه، ليس أهل القرية بالجبناء أو المجانين، لا تنس أنني لا زلت عمدة القصر، وأن لي القرار والرأي والمشورة، ثم إنك لن تخسر من أرضك شيء بالمرة، إنما هو ملك الناس، وملك الناس لرب الناس لا دخل لك به ولا شأن، وإن كنت لا تريد من ذلك شيئا فلتعصم نفسك من هذا الإرث وليدخل فيه إخوتك

حينها ازدرد جيلاني لعابه هلعا، الكل يخاف بطش العمدة سليمان حتى أنهم يحدثون أنفسهم أحيانا أن ملك الموت نفسه يخافه، ظل يحدق فيهم في صمت وفي عينيه نظرة جعلت قلوبهم تنتفض ثم تهوي بهم للأرض، زاغت أبصارهم وقد مرت عليهم في الميدان لحظة كأنها عمر كامل، يتشح فيها الكل بالخرس، يعرفون أنه يستصدر حكما

بسرقة مالهم ولا يتكلمون، يقلب عينيه فيهم وهم يتلونون ذعرا أمام الديوان، واجم كعادته لا تستطيع أن تعرف ما يفكر فيه، كأنه يستمتع بممارسة قوته عليهم.

رفع حينها يمناه إلى الناس في الساحة وأعلن موافقته على الرأي وأمر أن يذهب كل إلى حاله وأن ينفض الديوان، وقتها كانت يمن متكئة في الداخل على الأريكة الخشبية المفروشة بوشاح مزركش باللونين الأخضر والأزرق، تتلصص خلسة خلف النافذة المطلة على الديوان مستمعة إلى حديث الرجال، لم يرق لها ما قاله جيلاني، ربما لأنه ليس ابنها، إنه ابن زينب زوجة سليمان الأولى وأكبر أولاده، تلك التي أجبره والده على الزواج منها قبل زواجه من يمن، لم تكن تحبه البتة، ولم تكن تعرف طريقا للتخلص منه وإزاحته ليعتلي عبد الصمد العمودية بعد سليمان، إنه كالشوكة الرابضة في حلقها، كلما حاولت أن تدبر مكيدة له ينأى سليمان عن رأيها، يشعر تجاهه بالشفقة حتى حين بلغ سن رشده وأوشك على الزواج، يشعر بذلك النقص الذي عاناه في طفولته إزاء فقدان أمه.

ليس على الإنسان حمل في الأرض ولا هم أعظم من فقدان الأم، أن تفقدها يعني أن تفقد كل معنى للحنان والمحبة، أن تتحول الجنة التي في الأرض إلى مراع من الشوك تلهب الجسد ولا تذيقه رحمة ولا رأفة، لم تستطع أن تكظم غيرتها وهي تستمع إلى زوجها يروي عليها

كيف نزعه من قبر أمه نزعا، لم يكن ليصدق أنها رحلت عن العالم، لقد غامت الدنيا في وجهه يومها وماتت البسمة بكل ما فيها، لم يره مبتسما منذ ذلك اليوم، حتى يوم رحل الجيش السنوسي من الواحات، كان سعيدا لكن الابتسامة لم تدن من شفتيه أبدا.

اقتربت سكينة من سيدتها يمن لتجدها غارقة في بحر من شرود وصمت يعتريها يغير كل ملامحها الجميلة، هي تعرف سيدتها جيدا حين تغضب أو تفكر أو حتى حين تتأمر لمكيدة من المكائد التي تدبرها النساء دنت وقالت بصوت أقرب إلى الهمس

-سيدتي.. ما الأمر؟

-إنه القلق يا سكينة، القلق الذي يملأ قلبي حين أعرف أن سليمان قد لا يدوم حيا لفترة طويلة، وهؤلاء الثعابين أصحاب اللحى يحيطون به من كل جانب، القلق أن يعتلي هذا المعتوه جيلاني سدة العمودية بعد والده.

-هل لي بالنصيحة يا سيدتي؟

-(بضجر) سكينة.. لا أحب المقدمات إن كان في جعبتك شيء أخبريني به أو دعيني فيما أنا فيه من كمد وهم.

-لم لا تقنعين سيدي سليمان بأن يقسم التركة حيا بين أولاده؟

-أجننتِ سيجعل ذلك لجيلاني عليهم حكما وأمرا

obeikan.com

-ليس في حياتك يا سيدتي، ما للنساء والتركة، أيخرج ما جناه عمدة القصر إلى النساء دون رجالها، ليس للنساء من الإرث في شيء إنما الأمر كله يؤول للرجال وحدهم، وبهذا تضمنين لسادتي الأربعة نصيبا كبيرا من ملك أبيهم.

-الثراء لا يساوي شيئا بدون قوة تحميه، والقوة لا قيمة لها في الأرض بدون سلطة حكم تحلل ما ترتكب من حرام حتى وإن ألغت كل ما هو محلل ومحبوب، والناس على عادتهم غوغاء يتبعون كل من له بأس وباع ومال ولا يهمهم الضعيف.

-وهذه هي الخطوة التالية، أن يجتمع الأبناء الأربعة على صوت واحد بأن تكون العمودية فيهم بحياة والدهم ويصبح سيدي عبد الصمد عمدة للقصر ووالده حي يرزق، ظاهر الأمر ألا يطمع في العمودية من بعده أحد، وباطنه ألا يصل إليها جيلاني مهما كلف الأمر، أليس هذا ما تخشين يا سيدتي.

-وهل تعتقدين أن سليمان سيرضى بكل هذا؟

-لا تعاجليه في الأمر، هو لازال في أوج السعادة وشم الذرى بخروج الجيش السنوسي، أعينيه أولا أن يثبت قوته فوق كرسيه، وما إن يقتنع بقدرته وبفرض هيبته على الناس حتى تقنعيه بأن الأمر قد دان له لكنه لا يضمن أن يدوم لنسله من بعده، أوهميه أنهم ليسوا بنفس قوته التي

يملكها وأن السبيل الوحيد لذلك أن يملكوا شيئا من القوة في حياته، هنا فقط سيرضى، لا تتعجلي بالأمر سيدتي.

obeikan.com

الفصل الخامس

الواحات البحرية – مسجد الصفايا – شرقي الباويطي ٢٠١٤م

تمعن عبد الله في المسجد الذي تشققت جدرانه الخلفية ناحية دورات المياه، يذكر حملة خروجه الأولى مع جماعة التبليغ والدعوة حين جاء في إجازة قديمة في ٢٠١٠م إلى مصر، بينما ظل حسام متذمرا لإضاعة الوقت واقتراب موعد تسليم البحث دون اكتمال مواده أو جمع القدر الذي يكفي لتقديمه في القاهرة، ابتسم عبد الله ولم يعبأ لغضب صديقه ثم وقف أمام المسجد واضعا ذراعيه بين خصره واتجه للسيارة وجلس يحدق في عيني حسام الذي انفجر قائلا

-وسنظل كثيرا في هذا المكان دون شخص استطيع التسجيل معه ؟

-ألم تقل أن التسجيل يصلح مع الأحداث التي كانت هنا حتى ولو في الوقت الراهن؟

-بلى.. ولكن أين الإخباري.. أين المنزل؟

-لا يوجد منزل أو إخباري.. أنا من سيعطيك الحدث

-أما كان حري بك أن تنتظر.. ستكون مرجعي النهائي في الختام قبل رحيلي

-لكنني مصر هذه المرة على عملي ..

-حسنا لك ما تريد

ثم بدأ عبد الله يروي له الأحداث التي مرت على هذا المكان منذ سنوات ليست بالبعيدة، لقد كانت ثلاثة أيام وقع فيها من الغرائب ما لم يخطر له على بال أبدا، تحركت السيارة في صباح يوم الجمعة من الباويطي، قديمة متهالكة من نوع التويوتا، مطلية بلون أحمر يشبه لون الدم، بشكل زادها قبحا على قبح ناحية بئر والد جنوبي غرب مدينة الباويطي، يقودها الشيخ عاطف ويتهادى بها على الطريق السريع كما يتهادى الوجي الوحل، هكذا سخر منه الشيخ عوض، ثم توقفت على شجار بين شيخين من قادة المجموعة أحدهم يطلب الخروج إلى مسجد الصفايا والآخر إلى منطقة بئر والد، حتى كاد الأمر أن ينقضي برجوعهم عما عزموا عليه.

بين كل هذا كان عبد الله يتساءل في نفسه.. أليس هذا الخروج وهذه الدعوة لله؟ وما دامت الأرض كلها للمسلمين فلماذا الخلاف إذن على الأرض التي سيخرجون فيها، وكان للشيخ عمر قوله فيما أراد، توجهت السيارة رأسا إلى شمالي غرب الباويطي، مسجد في منطقة أصبحت

مهجورة لا يسكنها إلا قلة من الناس.

أنزلت الأحمال من السيارة وقبل كل شيء قام الجميع للصلاة بأمر من الشيخ عوض الذي أصبح أمير الجماعة في الأيام الثلاثة المقبلة، وما أن فرغ الجمع من الصلاة والإنـزال أقيمت صلاة العصر ورفع الأذان، ثم جاء ما يعرف في الجماعة بالزيارة، فانقسموا إلى ثلاث مجموعات.. الأولى في المسجد قائمة على الخدمة وإعداد الطعام، والثانية قائمة على التسبيح بدون توقف ولا كلل أو هدنة، والثالثة ستزور بعض البيوت ما بين مريض وحديث الزواج وعائد من سفر أو حتى من له قريب في المنطقة سيقوم بزيارته.

ولأن عبد الله لم يكن يجيد الطهو ولم يكن أيضا قديم العهد بالجماعة اختير ليكون في مجموعة الزيارة، وكان هدف الزيارة شاب تزوج منذ شهر، طرقوا الباب رحب بهم جالسوه وتجاذب الكل أطراف الحديث ثم دعوه للخروج معهم معللين بأن ما يفعلوه هو مهنة الأنبياء، تحرج قليلا ثم منحهم وعدا كاذبا ورحلوا.

وصلوا إلى المسجد قبيل المغرب، أقيمت الصلاة ثم تبدل الأمر بين المجموعة الثانية والثالثة فصارت واحدة للذكر والخطبة والثانية تجوب الأرض وتطرق الأبواب وتستدعي الرجال إلى المسجد ليحضروا الخطبة بعد صلاة العشاء، من الناس من يتهرب، ومنهم من يأبى إلى أن عادت الحملة للمسجد مرة أخرى.

أقيمت صلاة العشاء وانتهت الخطبة سريعا وعاد كل لداره ثم شرعت الفرقة الأولى – فرقة الخدمة – في تشكيل المائدة من أصناف ليست بالكثيرة كنوع من الزهد لكنها بكميات كبيرة كنوع من تغطية الشبع الذي لا ينتهي، ثم احتسى الجميع أكواب الشاي وبدأ الشيخ عوض حديثه للجماعة عن فضائل الإسلام الذي انتقل رويدا رويدا إلى طرق الاستنجاء من الغائط بالطريقة الصحيحة وباختيار الإصبع المناسب، ثم الطريقة المثلى للجماع وكيفية الطهارة من بعد الجماع وفوارق الطهارة بين الرجل والمرأة، ثم تطرق بعدها إلى حديث استقاه من رياض الصالحين، إذ أنه مكروه لدى الجماعة أو بالأحرى المنضمين حديثا للجماعة أن يطالعوا أيا من الكتب غيره ريثما تثبت أقدامهم ويثبتون أنهم جديري الثقة بأن يبحثوا بأنفسهم في كتب الفقه، وكان ذلك وجه الاعتراض بين عبد الله والشيخ عوض الذي قال

-لا زال الأمر مبكرا لقراءة كل هذا الكم.. التزم أولا برياض الصالحين والقرآن الكريم حتى يحن الوقت اللازم للقراءة

-لكن يجب على الجميع أن يفقه دينه

-فقيه واحد يكفي قرية كاملة.

-(عبد الله محتدا) فإن مات الفقيه هلكت القرية بعده.

-" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ".

-فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.. ما بالك بألف فقيه؟

-الدين والفقه مذاهب فإن أدركته بعقلك لم تكن فقيها إنما يصير لك مذهب مخالف للجماعة ولتعلم أن يد الله مع الجماعة وأن الشيطان كالذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية.

-إن كان من خطأ أو سهو أو نسيان فعلى صاحبه، وإن كان صوابا فأجره على الله.. " إنا له لحافظون " فلن يلوث فقيه أخطأ في اجتهاده عقيدة كاملة إلا إن كانت العقيدة نفسها منهارة من البداية، ولا أظنها كذلك .

ثار الجمع على عبد الله بعد قوله وتدخل الشيخ عوض لتهدئة الجميع صائحا :

-هو لم يقصد الإساءة لعقيدة الإسلام بعينها، إنما هو يريد أن يعلم وليس في ذلك الأمر عيب، كأنه موسى عليه السلام يتبع الخضر لكنه لم يستطع صبرا كما فعل موسى

ابتسم عبد الله لقول الشيخ ثم قال في نفسه ساخرا " أوصلت أنا لمرتبة موسى عليه السلام؟ وإن وصلت فهل أنت الخضر؟ "

ثم شرع يحدثهم فيما هو محلل ومحرم يقعون فيه في بيوتهم بغير دراية ولا فهم، وكيف أن الحياة صارت مثخنة بالفتن والناس عن ربهم يغرقون في عبث الدنيا وهمها ولا يتذكرون آخرتهم

" تجد المرأة من هؤلاء تشارك زوجها في مشاهدة كرة القدم، هو

obeikan.com

لاه عن ذكر الله وهي لاهية، ويسمح لها بمشاهدة الرجال وعوراتهم ظاهرة له ولها دون احتشام أو أدب وعورة الرجل ما تحت السرة وما فوق الركبة، ولا يعلم أن الله حرم عليها ذلك فيبوء بإثمها وإثمه وقد قال الله في كتابه " وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن " كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا النفس تمني وتشهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " وقد قال ابن تيمية " قد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر للرجل الأجنبي بشهوة أو بغير شهوة من الأساس " سيقول السفهاء منهم إنما القصد من المشاهدة التسلي، إن كان الأمر كذلك فالتسلية بالذكر والقرآن أولى من كل هذا، فليست نساء هذا الزمان خير من نساء النبي، فكل الحوادث بدايتها من نظرة تلهب القلب وتبعث على الفحشاء في النفوس أعزكم الله، فالتوبة التوبة يا إخوة الإسلام والإيمان، فليس هناك عيب في الخطأ لكن العيب في الإصرار عليه وفي عدم طلب المغفرة من الرحمن "

ثم أنهى حديثه بالدعاء على اليهود ومن هاودهم، ثم أتبع الدعاء على النصارى ومن ناصرهم وأمن الجميع خلفه راجين في قلوبهم من الله أن يبيد البشرية كلها ولا يذر على الأرض سواهم.

توجه الجميع إلى مخدعه واستلقى كل على جانبه الأيمن كما أمر الشيخ

مقتدين بسنة نبي الله صلى الله عليه وسلم، وراح الكل في سبات عميق وفي الساعة الثالثة لكز الشيخ عوض ظهر عبد الله بقدمه لا ليوقظه، إنما أراده أن يغير الطريقة التي ينام بها، إنه ينام وصدره للأرض وظهره للسماء قائلا " هو نوم الشياطين، نم على جانبك الأيمن " نظر إليه عبد الله بعينين حمراوتين، ثم جلس مستغفرا ربه صامتا لفترة ما كي يهدأ انفعاله وهو يدرك في داخله ألا فائدة من الجدال مطلقا.

ظل عبد الله يلوذ بالصمت في أغلب النقاشات التي تدور، لم يكن خروجه معهم يومها بغية العلم، إنما كان هروبا مما يعانيه، هروبا من التفكير في تلك التي تركها على بعد قارة كاملة وبحر عباب تتلاطم أمواجه على الصخور، تفكيره في فرجينيا وخياله الجامح تجاهها لم يكن ليتوقف للحظة واحدة على الأقل، لقد بدأ يبتعد عنها تدريجيا لكنه يعجز عن نسيانها، يخبره الأصدقاء من مصر أنه سيجد حتما من تعوضه غيابها لكن القضية لم تكن في الغياب أو الفقد، إن القضية الحقيقية التي كان يخافها في حديثهم هي اختلاف الدين والعرق بينهما، وأن أي وسيلة مهما كانت لا تحتمل إلا خسارة شيء من اثنين، إما أهله وأسرته وإما هي، وليس له خيار في التضحية.

الأمور الجبرية دائما لا يكون فيها منفذ أو اختيار، هي كما الموت تهل فجأة على الإنسان دون أن يضعها رهن الاعتبار فتعصف بكل ما تبقى لديه من تفكير، لتحيله في النهاية إلى قرار واحد إن اختاره شعر بالألم،

وإن اختار ما هو دونه شعر بالألم أيضا، كأن الحياة دائرة نتحرك فيها ونتوهم أننا نتحكم في إيقاعها لكننا في الحقيقة لم نتحكم فيها بالمرة، ما كان يظن أن تعلقه بها قوي إلى هذا الحد، إن هذه الليلة قاسية ومؤلمة حد الثمالة، أراد البكاء إلا أن عينه أبت، إنها لحظات قاسية لا يمكن لأي شخص أن يفهمها، ولن يستطيع فهمها إلا أولئك الذين تعودوا الحب وعرفوه حق المعرفة، إنها ليلة لا تريد أن تنتهي.

عاد للنوم ثانية في تلك الليلة والتفكير يعتصره ويسحقه، ورأى في منامه أنه يركب دابة لا يعرفها ملونة بين الأبيض والأسود، تركض بسرعة خلف امرأة تطلق ضفائر شعرها خلفها في طريق إسفلتي بين أراض زراعية أحيطت بأسوار من جريد النخيل حتى وقفت على واد سحيق هوت فيه المرأة ودابتها بينما وقف هو على حافة الجرف ينظر برعب لما كان في الأسفل، دواب في حجم الأبقار لها أذناب ترتفع كأذناب العقارب، وثعابين بينها تنتصب رؤوسها وتتحرك كالنخال الطوال بين الدواب، كادت الدابة التي يمتطيها أن ترميه في الوادي السحيق لكنه قفز عن ظهرها حين لمحته الدواب العملاقة في الأسفل وشرعت تطارده.

ظل يركض وتلك الدواب خلفه على مرمى البصر حتى وجد أرضا بها فتحة بين أعواد الجريد المتراصة فهرع يختبئ فيها، ثم وجد كهلا يرتدي ملابسا بيضاء، لا يعرف من أين له قوته حين قال له اختبئ

خلف هذه الزروع وأنا سأصدهم حين يأتوا إليك، وصلت الدواب ووقف الكهل أمامهم فاتحا ذراعيه، سحقوه تحت أرجلهم بغير رحمة وظلوا يشمون الأرض كالكلاب ثم رحلوا آفلين إلى الوادي السحيق مرة ثانية.

لم يجد من يقص عليه الرؤيا غير الشيخ عوض الذي اعتدل في جلسته ثم استمع إليه بإنصات واهتمام شديدين وما أن انتهى عبد الله من قص رؤياه حتى بدأ الشيخ عوض في سرد تأويله

-إن الدابة هي الدعوة إلى الله، وامتطاؤك للدابة ما هو إلا السبيل الأول للخروج، والحفرة التي بها العقارب والحيات هي جهنم، والرجل المسن هو قدر الناس الذين يصدقون دعوتك حتى الآن، بمزيد من الخروج والطاعة والعمل ستجد الأمر أفضل، هذه رؤيا جيدة وبشارة حسنة.

التأويل على دين صاحبه، والرؤيا أو الحلم ما هم إلا رسائل تأتيه من العالم الآخر، تمضي الأيام في الخروج ولا يستطيع أبدا أن ينسى من سرقت قلبه، هو الحب.. لا يجب على الإنسان أن يمانعه أو يغالبه، يأتيك من حيث لا تعلم، ويحيط بك كما تحيط النيران بالقش فلا مناص منه ولا سبيل إلا إليه، سترفضه، ستحاول جاهدا نسيانه لكنه لن يتركك أبدا مهما فعلت.

هنا قاطعه حسام قائلا :

-لهذا الأمر قررت أن تبتعد عنهم وأن تعرف كل شيء بنفسك

-ربما أنت في هذا الأمر محق، وربما لأنني سئمت الانقياد بشكل أو بآخر

-حسنا.. أنا لا أريد أن أكون فظا.. لكنك عرضت علي أن تكون إخباريا لهذا اليوم، فهل لديك شيء قديم كذلك الذي جمعناه ؟

-بالطبع.. أذكر القليل مما روته لي جدتي – رحمها الله – في ساعات الزيارات الخاطفة التي كنا نزورها فيها

-وماذا تنتظر.. هيا كلي آذان صاغية.

-حسنا لنبدأ بالباويطي في عام ١٩٢٨م

عاد عبد الله بظهره إلى الوراء وبات يتذكر حديث الجدة إليه عن فضيحة لن تنساها الباويطي أو القصر مهما مر عليه الزمن وتناستها الألسنة في حديثها ...

ظل الكل يتغنى في المسجد بذكر الحبيب المصطفى في مولد الشيخ الباويطي، الكرامات التي تغطي المكان لا حصر لها ولا عدد، إن العشق الإلهي ليس له نهاية، لذة الحب نعمة لا يفهمها إلا هؤلاء الذين من الله بها عليهم، تتراقص الأجساد مع المنشدين ، يرتفع صوت في عذوبة شديدة بينهم كأنه بلبل يصدح بصوته بين الجميع

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بحبك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

إن الله هو الغاية والمنتهى، الحب والحبيب، وحب الله شعور عسير المنال، ليس كل من أطاع الله قد أحبه، وليس كل من أحب الله قد عرفه، وليس كل من عرف الله وصل إليه بقلبه، ومن وصل لله بقلبه فلن يعرف الخوف إلى نفسه طريق، تلك العلاقة الروحانية لا يمكن لأي شخص أن يصفها بكل ما فيها، الحب الإلهي قوة هائلة.. فقط من ذاق عرف.

ترتفع الصلوات على رسول الله بين الحاضرين ويصطف الرجال في صفين متوازيين وجههما لبعضهما البعض، وخارج السرادق وضعت الولائم على الأرض في دوائر، يجتمع الناس فيها والكل يأكل ما لذ وطاب، الأطفال يتلاعبون بالمجانين في القرية والمجانين منهم من يتذمر ويسب فيثير في الصغار هستيريا الضحك، ومنهم من يقذف الصبية بالحجارة فيهرولون من أمامه إلى سرادق النساء اللواتي ينهرن أطفالهن على الشقاوة المفرطة ويتوعدن بإخبار الآباء حين العودة إلى المنزل.

وفي غمرة الشجن الذي تحياه المنطقة، وعلى بعد مسافة ليست بالقليلة في الظلام وسط أحراش أرض التحتانية، كانت حسان القزام ينفرد بشامخة التي جاءت معه راغبة بعد أن لعب الخمر برأسيهما، وأغرتها فحولة حسان المفرطة، كان العربيد الأكثر شهرة في المكان، لم يكن يضاهيه في شره أحد، ولم تكن شامخة بالتي تسقط بين براثنه بسهولة، استسلما للهواء العليل، جردها من ثيابها فوق حشائش البرسيم اليافعة، وشرع يثبت لها أنه يافع بدوره، استسلمت له بعد مقاومة على استحياء بدرت منها أنهاها هو بلمسة محترف يعرف جيدا ما يفعله، ظلت تئن، وظل يتأوه حتى صرخت صرخة أفزعته

-أنا بنت

-كنت ناسية ولم تتذكري أنكِ بنت إلا الآن.. أنتِ بنت كلب !!

-أرجوك يا حسان كفى ولنرجع

-لا رجوع اثبتي وإلا كان يوم أبوكِ أسود.

عاد يصول ويجول بقوة في هذه المرة بعد أن فقدت هي عذريتها، وبين الدمع الذي احتبس في عينها والخوف الذي ركب جسدها، تحاول على خوف أن تدفعه بيديها بعيدا لعله يكف، يضع ذراعيها على جانبي الأرض كمن يجهز للصلب، ثم يغرس وجهه في صدرها ليتنفسها، لم تكن النشوة هي الشعور الذي بلغته في كل هذا حتى وهي راغبة في

الأمر، ذاهبة طوع إرادتها، تنبَّت الخوف في ثنايا قلبها ونمى، وبات حسان يسقيه بصولاته وجولاته المتعددة، حتى نمت شجرة الخوف بداخلها وطرحت ثمارها، وبات الذعر يقتلها كما يقتل حسان روحها حتى قضى حاجته بعد أن طمست فيه الرغبة وبلغ أقصى حدود شهوته.

جلسا واعتدلت هي بعد أن ارتدت ملابسها، وظلت تحدق فيه بينما أخرج من جيبه تلك العلبة النحاسية التي تحتوي لفافات التبغ وأشعل منها واحدة، ظل ينظر إليها ثم يمسح بيده على شعرها الفاحم الأسود، ثم يغرس أصابعه في ظهرها وحول عنقها وعلى شفتيها.

لم تكن تشعر بالأمان، صحيح أنها جاءت راغبة، لم يرغمها على شيء لكنها تشعر بعد وقوع الجريمة بالخوف ، أولت الأمر في البداية إلى شعور الذنب والخطيئة، لكن ماذا عن الفضيحة التي تنتظرها في الأعلى، هناك يحتفل الدراويش والناس بالمولد، الذنب يمكن أن يغفره الله إن كانت التوبة حقيقية، لكن الناس لا يغفرون لمن يرتكب الخطايا مهما جرى، الناس لا يفتحون أبوابهم كما يفتح الله بابه، اربد وجهها وهي تتذكر الله وظلت تناجي نفسها وحسان يرقد جوارها لا يبالي بشيء بعد أن استفاق قليلا من جرعة الخمر التي تناولها في هذا اليوم، ظلت تحدث نفسها قائلة

-الآن.. الآن فقط تذكرتِ الله، لقد كان موجودا وقت هبوطكِ من الساحة، وقت الكذبة التي أسمعتها أمك حين أخبرتها أنكِ ذاهبة

لصديقة توصلينها لمقام الشيخ، تسهلين لارتكاب خطيئتك باسم الشيخ الطاهر الذي لن يغفر لكِ أبدا، ولقد كان موجودا وأنتِ تهرولين إلى التحتانية متحاشية طريق عين الصلاة خوفا من أعين الرجال، لكن ماذا عن الفضيحة التي تنتظرني هناك؟ ماذا لو عرف أبي؟ ماذا لو تزوجت وفضح الأمر برمته؟ ترى أيرضى حسان بالزواج بي بعد كل هذا؟ أم تراه كبقية الرجال.. أنذال وجبناء؟ أولم يكونوا جبناء وأنذال حين نزلت ساقي التي تستحق البتر معه إلى هنا؟ وإن حسان وافق فهل يوافق أبي على هذا الزواج؟ يا إلهي ليس لي سواك.. ساعدني.

قطعها من شرودها صوت حسان وهو يتجشأ ثم يخبرها أنه يجب عليهما الرحيل من هنا قبل أن يكتشف الأمر، قامت ولملمت جسدها الذي تبعثر داخليا وتحركت خلفه على مرمى البصر خشية أن يبصرهما أحد من الناس فيصبحان حديثا تلوكه نسوة البلدة كلها، هكذا الألسنة قاطعة أحد من السيوف، بتارة كساطور بيد قصاب هوى به على فك الضحية فهشمه، كان قلبها ينتفض بقوة أسفل العباءة السوداء، اصطكت أسنانها من وقع الماء الذي غسلت به ما بين فخذيها ومن خوف أن يبصرهما أحد، تمنت على الله في خجل أن يسترها في العودة كما سترها في الذهاب.

وصلت المدينة ودون أن يلحظ أحد اختفى حسان فجأة من أمامها وسارت هي حتى وصلت إلى البيت ، دفعت الباب ولم يكن بالداخل أحد

، دخلت إلى غرفتها مسرعة وألقت نفسها على الفراش ثم غرقت في بكاء مكتوم.

*****

في تلك اللحظة قاطعه حسام قائلا بغضب :

-أخبرني.. بأي شيء سيفيدني أن امرأة قد زنت؟ كثير من الرجال والنساء يميلون إلى الحرام، وأنا لم أصل إلى هنا للفضيحة، إنما جئت لنقل الأخبار فقط

-هل تذكر ذلك المسكين الذي وجدناه بجوار المقابر يبكي، ثقيل اللسان يتدثر بالصوف وقد اختلط عليه البكاء بالتسبيح

-(يطلق حسام زفرة ملتهبة) نعم ماذا به؟

-والده هو مرتكب هذه الجريمة، اختفى من الواحات بعدها لفترة بعد أن تناقلت الألسنة الفضيحة، ثم عاد إليها بعد سنوات عشر ومعه امرأة غريبة وهذا الطفل، تمر الأيام ويموت حسان ويرفض أحدهم إيواء الطفل الذي اتخذ من المقابر سكنا له، ينزل الموتى إلى قبورهم في مقابل زهيد، الكل يأبى مصاهرة ابن حسان، يخافون، فلعله ابن زنا، وهو يتحمل خطايا والده كلها، وحين أصيب بالجلطة أصبح بلا عائل أو عمل.. يتصدق الناس عليه كلما حل موت أو زار أحدهم قبر عزيز في الأعياد، يسمعون صيحاته وتهليله من الغرفة وهو يخرج سائرا بشق

الأنفس فيرأفون به ويمنون عليه بما استطاعوا.

-(حسام متأثرا) يا الله.. هل لك أن تتابع

-حسنا

ثم يعود عبد الله بالذكريات التي روتها جدته إلى العام نفسه

*****

ستة أشهر مضت رزق فيها عبد الوهاب الحجار بولده الأول سليم، وازداد الخُطاب إقبالا على بيته رغبة في الزواج من كبرى بناته مرجانة، وكان رفضه يزيد مع زيادة المتقدمين إليها، رده كان واحدا وثابتا " لا بنات عندي تصلح للزواج " كان يأبى إذ لم ينل من الله الولد الذي تمناه بعد طول عناء، طفل له يحمل اسمه ويحمل معه شقاء السنين وأحلامها، من يرث الأرض إن لم يرثها البنين، ثم رزق به بعد عناء وكد، سليم ابنه الأول ولعله يكون الأخير فقد شارف على الثامنة والثلاثين من عمره بعد أن رزق ببناته الثلاثة مرجانة وسعدية وهدى، وكان دائم الشجار مع زوجته وصديق عمره حمدي عنان بصدد هذا الشأن " أنا لم أرزق من الله ببنين، وهذه رزقي منه، وحين يشب سليم فلن تعود بي حاجة إليها وحينها زوجتها لمن شئت " ولم تكن صابرة تستطيع أن تخالف أمر زوجها حيال هذا الأمر، عنيد هو ومتصلب الرأي كأبيه، كيف لها أن تأمن مثله وقد كان أبوه قاتلا لولده فلذة كبده

فقط لأنه لم يطع أوامره وتزوج، الزمن يتكرر ويعاد من جديد ، لا شيء فيه يتغير إلا الأشخاص ، الراحلون يورثون من بعدهم الجهل نفسه الذي عاشوا فيه، والأحداث يقولون هذا ما وجدنا عليه القدماء، الحياة فعلا كسلاسل مرتبطة ببعضها البعض، أو أنها حبل معقود ما إن حللت منه عقدة حتى وجدت الثانية تصدك عن سعيك.

لكن حمدي لم يكن يرضى بمثل هذا خاصة حين صد عبد الوهاب جارهم عمر وهبي وأبى أن يزوجه ابنته، وضع خطة محكمة قيد التنفيذ، خرج مع عبد الوهاب إلى صلاة الفجر ثم قال له

-ألك من الماشية شيء بعد مقام الشيخ أحمد؟

-نعم

-لم تعد بها من هناك إلى البيت أتراها وضعت هناك وليدها فداريتها من الكلاب الضالة؟

-وضعت؟؟

-لقد أبصر ولدي الحبل الذي كنت تربطها به ممزقا ورأى الدم مكان ولادتها أمس، وعاد ليسألني إن كنت على دراية بالأمر، أخبرته أنني سألتقي بعمك عبد الوهاب وأخبره بما جرى لعله هو من تحرك بها إلى البيت بعد الولادة.. يا رجل لما لم تطلب عون واحد من أولادي، هم أيضا أولادك

-لم آت بها إلى البيت أبدا، لقد مزقت حبلها وشردت في أرض الناس

-حسنا سيصحبك ولداي إلى هناك ، ابحث عنها وعد بها للبيت

نجحت المكيدة التي دبرها حمدي عناني في الدفع بعبد الوهاب إلى الأرض الشمالية ما بعد مقام الشيخ أحمد، ثم أمر ولديه ألا يعودا بالرجل إلا بعد أيام أربعة يهدرون فيها وقته وجهده في البحث عن البقرة التي خبأها حمدي بالأصل في منزله قبل إخبار عبد الوهاب بما جرى.

وضع عبد الوهاب على بردعة حماره الخبز والطعام ما يكفي لأيام أربعة ثم لحق به ولديّ حمدي على حماريهما وتحركا صوب الشمال ليتبعا أثر البقرة الضالة ووليدها وليدعوان على خبث مثل صاحبهما ألا تلتهم البقرة من الثمار ما يضرها أو أن تنهش وليدها الكلاب الضالة على أطراف الواحة، وبينما هم في شغلهم الشاغل أرسل حمدي إلى والد عمر كي يزوج مرجانة إلى ولده.

ذبحت الذبائح على مدار أيام ثلاثة، وكانت الساحة لا تفرغ أبدا من الناس القادمين والذاهبين، في الخارج كانت تسلية الجمع بأبي جبلين الطفل الأبله الذي بلغ من العمر خمس سنوات، وقد انقلبت الساحة الداخلية لبيت عبد الوهاب والتي حرم على الرجال الدخول إليها حيث مضارب نسوة المدينة، كانت النساء تتراقص واحدة تلو أخرى في نشوة الفرح، وكانت شامخة تنظر إلى النساء وإلى صديقة عمرها ومثيلتها

في السن مرجانة نظرة ظاهرها الغبطة وباطنها الألم والحسد، لقد أصبح جنين الخطيئة يتحرك في أحشائها ولم تعد تستطيع أن تفكر في شيء إلا في التخلص منه أو إخفاء ما بدا في بطنها من الجميع، إن عذاب الله استمر معها منذ تلك الليلة السوداء في مولد الشيخ الباويطي، حسان عليه اللعنة من الله، كيف تلاعب بها هكذا وكيف سمحت هي له أن يهتك عرضها.

صوت الطبول والدفوف لا يستطيع أن يطغى على الألم الذي تعيش فيه ويقتات في كل يوم يمضي عليها، ويبدو على جسدها العليل الذي أصبح منحولا بفعل الخوف من الفضيحة، تتناول كل فتاة في العرس يد الثانية كي تشاركها الرقص والفرحة، وتحجم هي عن كل هذا بل وتتمنى على الله أن يمضي اليوم على خير دون أن تسأل واحدة من النسوة عن أمرها وعن سر انتفاخ بطنها، وبينما هي غارقة في كل هذا تنتشلها يد لتوقفها على حين غرة بينما تضع اليد الأخرى الشال حول خصرها ثم يجرها الفتيات إلى الساحة في المنتصف بين النساء معلنين أنه دورها في الرقص، تمنعت في البداية وجحظت عينيها في خوف وحاولت الفتيات مداعبة أن ينتزعن عنها العباءة التي تلتف بداخلها كيرقة في طور التحول إلى فراشة، كانت تعرف أن هذه العباءة لو سقطت سيسقط معها كل شيء، كانت تتشبث بها وأيدي الفتيات تعبث ببقية الجسد كذئاب تحاول تجريد ضحيتها من كل شيء، حتى

الإرادة البشرية، النعمة المكفولة من الله للإنسان بالاعتراض، ركضت منهن نحو الباب أملا في الهرب، ظن الفتيات أنها تشعر بالخجل، ركضن خلفها يحاصرنها من كل جهة، دبيب الوليد في أحشائها يعلو دقات قلبها الذي كاد يسقط أرضا من فرط الهلع، والنسوة يضحكن على خجل الفتيات وإحداهن تقول " لا زالت الدنيا بخير، عذراء تخجل " سمعتها شامخة وهي في الطريق إلى الباب، كانت الكلمة كخنجر ينغرس فيها حين قيلت، عادت معهن وهي تتمنى انشقاق الأرض عنها في تلك اللحظة كي لا يكشف الأمر على الملأ، ثم على حين غرة شدت يد العباءة من دبر فتجسدت بطنها أمام الحضور.

علت شهقات مكتومة من النسوة الجالسات في الساحة، وران على الجميع صمت تام تحدثت فيه العيون والأفكار السوداء، تفصد جبينها عرقا باردا ثم ربطت الشال بمفردها حول خصرها، وقد تهدل حين طاردها الفتيات، حاولت امرأة من الجمع أن تغطي على ما جرى فأطلقت زغرودة قوية في المكان وعادت الصغيرات إلى الدف يضربنه بأيديهن وهي ترقص في المنتصف، لم تعد تشعر بما يدور حولها، ألا قد دقت طبول الفضيحة فوق رأسها، وما أن ترحل حتى تبدأ النساء تلوك سيرتها، لو لم تكن الخطيئة مع حسان الذي تخلى عنها.. ولو لم تكن الخطيئة بالأساس.

وصلت شامخة إلى بيتها وتدثرت بكل ما ملكت من قوة، لم تكن في

حاجة إلى من يذكرها بالموت، لعل ما ستقوله النسوة في المدينة كفيل بجعل والدها يقوم بقتلها، لكن والديها لن يعودا إلا حين يأتي المساء، وحسان لن يعيرها أي اهتمام، سيتنصل منها كما فعل في أول مرة حين أخبرته بدبيب الحمل في بطنها، ليس لديها الآن أي مفر إلا أن تتخلص منه، ويجب أن يتم الأمر في هذه الليلة.. والمكان ليس بالعسير وليس بالبعيد، إنه إسطبل العمدة سليمان الذي يحبس فيه خيوله، بعيد عن الباويطي وضواحيها، عليها أن تتجاوز في جنح الظلام قبل الفجر منطقة السور فزاوية السنوسيين التي هجروها منذ تسع سنوات فالبركة ثم ساحة أبوشتي، ولا يجب أن تبصرها عين، وفي طريق العودة عليها أن تجتاز عين شاور ثم المقابر والتبة المجاورة لها، فإن هي فعلت صارت آمنة.

ولم يضع الوقت سدى، في المساء وتحت جنح الليل والناس نيام، لا أحد يجوب الشوارع سوى الخفر والهجانة، ظلت تتحرك كلص يخاف أن يراه الناس علانية، مرتكب الذنب يشعر أن كل العيون تبصره، وصلت لمكانها المنشود، وبين كومتين من القش اضجعت وراحت تهوي بهراوة على بطنها وتكتم الصراخ والدمع حتى بدأ الجنين بالخروج من رحم أمه، كاد قلبها أن يتوقف وبدأت الدنيا تدور أمام عينيها، ثم أظلمت الدنيا دفعة واحدة وفقدت شامخة وعيها.

عادت لاستفاقتها من جديد لتبصر تحتها الدم وجنينا صامتا لا يتحرك،

تناولت بكفها من الماء في الحوض المجاور لها وجعلت تغسل رجليها وجسدها مكان الدم، ثم نظرت لصغيرها الذي وأدته توا بحسرة، سالت على وجنتيها دموع حارقة، لثمت جبينه بقبلة ثم سمعت صوتا قادما من مخازن العلف، أنزلت الصغير برفق ثم تسلقت الجدار لتقفز في الشارع من الناحية الثانية، لم تعرف كيف جاءت كل تلك القوة إليها وكيف واتتها الجرأة لفعل كل هذا، يكاد قلبها ينفطر على وليدها الذي تركته ميتا على الأرض وهربت، ليس هكذا فعل الأمهات، يوشك أذان الفجر أن يرفع في المساجد، وإن لم تصل إلى البيت قبل بلوغ الفجر فلا فائدة من كل ما قامت به قبل قليل، قاطعت حبال أفكارها صوت أحد الخفر للعمدة سليمان حين صاح مناديا " من هناك ؟ " شمرت عن ساقيها وأطلقتهما للريح تعدو لا شيء ورائها طاردها أحد الخفر بينما وقف الثاني على باب الإسطبل تحسبا لوجود شريك للص، ثم دخل إلى الإسطبل فصعق مما رأى، طفل حديث الولادة يرقد محاطا بالقش عاريا في هذا البرد الشديد، اقترب منه فوجده ميتا وقد ألجمته المفاجأة.

يكاد الخفير الثاني أن يسقط أرضا لفرط بدانته وهو لا يستطيع اللحاق باللص الذي تخفى في عباءة امرأة، وتوقف بعد التبة المجاورة للمقابر يلهث أنفاسه بقوة، لقد اجتاز جريا خلف اللص عين شاور بأكملها دون فائدة، وها هو يعود إلى الإسطبل بخفي حنين لكنه يصعق حين يرى

العمدة سليمان بنفسه يقف على باب الإسطبل، ويقف على مقربة منه شيخ الخفر قصي عبد الرسول والخفير الذي كان معه منكس الرأس أمام العمدة يحمل بين ذراعيه طفلا صغيرا.

ظل الخفير واجما لا يملك ما يقال حتى تكلم العمدة

-وها قد تحولت حمى العمدة إلى مواخير، هل لكما أن تخبراني كيف جاء هذا الطفل إلى هنا، تسللت لص إلى الإسطبل ووضع صغيرا اختطف من أبويه وفر هاربا بعد أن حرق قلبيهما عليه.

وفي الصباح دفن الصبي الصغير وأمر العمدة أحد عبيده بجلد الخفيرين علانية لتقصيرهما في ساحة أبوشتي أمام الناس، ثم أطلق النفير في الواحات بأسرها أن طفلا سرق من أبويه ووجد مقتولا في إسطبل العمدة، وعلى النساء اللواتي وضعن مواليدهن أن يتساءلن عنه، وفي الوقت نفسه كانت شامخة تعاني الهلوسة المزمنة في البيت بجوارها أمها والجميع ممنوع من الدخول عليها، كان الدم جليا وواضحا فوق ملابسها التي ترتديها، ومن الحمى التي صابتها اعترفت بالخطيئة وبما حدث مع حسان وبكل شيء.

لم تستطع الأم يومها أن تخرج لعرس الجارة في بيت عبد الوهاب، صارت الفضيحة على كل لسان في المدينة، الكل يلوك سيرتها في حديثه بلا استثناء، الأب منكس الرأس لا يعرف كيف يداري ذلك بين

الناس، امتنع عن الصلاة ووضع قفلا كبيرا على باب بيته كي لا يدخل عليه أحد، تمت بينه وبين إخوته القطيعة الكاملة حين أبى قتل ابنته على ما فعلت، تسرب الأمر للعمدة سليمان الذي أرسل الخفر يجلبون والدها لساحة أبوشتي ثم أمر عبيده بعزف مزاميرهم على قمة التل المجاور لأبوشتي ليحضر الناس ويشهدوا عقابه.

جاء الرجل وقد أمرهم أن يربطوا يديه إلى ظهر الحمار ويسحبوه خلفه من الباويطي وحتى أبوشتي أمام ديوان العمدة، وصلوا إليه منفذين أوامره والرجل في قمة انكساره وذله، أبصره العمدة واجما كعادته لا يبتسم أبدا، قام من فوق كرسيه إلى الصليب الخشبي الذي نصبه أمام الساحة ثم أمر خفره وعبيده أن يربطوا الرجل إليه، ثم جرده أحدهم من ملابسه ممزقا إياها فبات جسده عاريا للملأ إلا مما يستر عورته، وجاء أحد العبيد مع سوطه ثم تولى سليمان وجه الرجل المربوط للصليب قائلا

-دعني أذكرك ثانية، يبدو أنك نسيت من أنا، من هو العمدة سليمان، تحتاج بين حين وآخر إلى أن تعرفه جيدا، هناك من الذرية والخلف ما ينصر قومه، ومنهم ما يربط والده إلى الصليب مذلولا لينال عقابه، لولا ملامة الناس لرميت ابنتك للعبيد يأكلون جسدها، هنا في الساحة وهؤلاء ينظرون

يزداد سليمان عبوسا ويزدرد الرجل لعابه ثم يقول في خيفة

-يا عمدة.. أرجوك أنا ....

-اخرس في حضرة العمدة، سأكون رحيما بك ولن أرضى بأن يطيح الرجال بعنقك، يكفي أن يجلدوك حتى تطلب منهم أنت أن يتوقفوا

-أنا أطلب منهم التوقف ؟

-نعم بأن تقول لهم أنك لست رجلا ثم ترتدي عباءة النساء وتعود إلى بيتك بها مارا على الناس، أو تبقى بينهم حتى يملون منك، إن كان في عمرك بقية حين يطلع الصباح ستعود لبيتك، وإن مت.. فهذا أمر الله وكلنا نؤمن به.

تأتي حينها زوجته كاشفة الشعر مهرولة نحو ساحة أبوشتي ثم تنكفئ على قدمي العمدة محاولة تقبيلها فيبعدها الخفر بعد أن يزجرها العمدة قائلا

-اغربي من هنا يا امرأة

-أتوسل إليك بكل ما هو غال.. كفى الفضيحة التي نالت بيتنا دعنا نترك الواحات بسلام

-أنا لا أعاقبه على جرم ابنته، إنما لأنها استباحت أرض العمدة ولوثتها بوليد من زنا، لكن سأكون رحيما به سأعطيه ثمن ملكه وليفتدي نفسه مني بالمال ويترك الواحات

-ولك ما شئت يا عمدة

-لكنني لا أعني بقولي أن العقاب لن ينفذ فيه

ثم أشار للخفر فقيدوها لتشهد جلد زوجها أمام الناس وهم ينظرون بانكسار لما يفعله سليمان ولا يمتلك أي منهم شطرا من الجرأة أو الشجاعة ليرده عن ذلك فيتحدثون بينهم وبين بعض

-البنت مخطئة لكن الأمر لا يستحق كل هذه المهانة

-(أحدهم بسخرية) الرغبة تذل

-(شخص ثالث) ذرية تجلب العار

تم فك وثاق الرجل بعد جلده ثم اتبعه شيخ الخفر إلى بيته الذي اشتراه العمدة بنصف الثمن وقد أعلمه الخفر أن لديه ثلاثة أيام ليغادر البيت أو سيدفنه العمدة فيه حيا هو وأسرته.

وعلى الجانب الآخر في الباويطي في بيت عبد الوهاب الحجار الغائب من أجل وليد بقرته، مرت أيام العرس الثلاثة بفرحها على قوم وتعاستها على قوم آخرين حتى عاد مع ولدي حمدي من الأرض الشمالية، دخل عبد الوهاب إلى بيته ثم سأل عن مرجانة، ارتبكت صابرة في بادئ الأمر لكنها قالت له إنها في بيت زوجها، صمت قليلا.. لم يكن بالذي يسمح لها بممازحته مهما جرى، أعادت عليه القول، احمر وجهه غضبا وهين هم بالانفجار أنقذها من براثنه صوت حمدي من خارج البيت

obeikan.com

ينادي عليه، خرج إليه عبد الوهاب وهو غارق في غضبه.

-أنا من زوجها

صمت برهة ثم ارتفع حاجبيه في صدمة وهو ينظر إلى حمدي، لم يكن يصدق أن صديق عمره هو من قام بهذا الفعل، ظل في حالة من الخدر والشرود لفترة طويلة بينما كان حمدي يتابع حديثه قائلا

-أخبرني إلى متى سيظل الأمر على هذا الحال، تظل الفتاة إلى جوارك فلا أنت الذي يسمح لها بجلب السقاء من عين الصلاة كبقية الفتيات كي يقترب الخطاب منهن ولا أنت بالذي يسمح لها بالزواج، استنكرت على والدك ما قام به إزاء عبد الله وفي الوقت نفسه

-أنا لا أستنكر على أحد شيء

-لقد تزوج عبد الله بجارية أما ابنتك فتزوجت بخيرة شباب القرية ول..

-لست هنا لأقرر ما هو الصواب والخطأ إنما أنا هنا كي أخبرك ألا تطأ عتبة بيتي أمد الدهر

انصرف عبد الوهاب إلى الداخل ثم لملم حاجياته وخرج من البيت هائما على وجهه ومن خلفه زوجته وبناته يصرخن كأنهن فقدنه إلى الأبد.

*****

الفصل السادس

الواحات البحرية – جنوب الباويطي ٢٠١٤م

أشرق الصباح.. وكعادته الدائمة يستيقظ عبد الله ويركض مرتديا سماعته فوق أذنيه حتى يصل إلى الملعب المجاور للمقابر الجديدة في الباويطي، يتجاوز الدورة الخامسة حول الملعب ويعود للمنزل ريثما يصل عم حسن في الصباح بالإفطار، يصعد الدرج سريعا ثم يسدل الستار عن النافذة التي تطل على الناحية الشرقية للغرفة فيصيب الضوء جسد حسام مباشرة، ينهض الأخير في تذمر وكسل مخاطبا صديقه

-لسنا في برمنغهام هنا لكي تستيقظ في هذا الصباح الباكر، وتوقظني معك

يضحك عبد الله لقوله ثم يخبره أن الإفطار قد تم إعداده بالأسفل وعليه النزول في أقرب وقت وإلا طارده بالمياة الباردة حتى يجبره على النهوض من سريره، لكن حسام نهض وهو يلعن ذلك اليوم الذي جاء فيه بصحبة صديقه المجنون، اغتسل سريعا ثم نزل إلى الأسفل

حيث انتهى صديقه من إفطاره وبدأ في إعداد الشاي على العادة التي يمارسها منذ الصغر.

تناول إفطاره في كسل ثم سأل عبد الله عن برنامج اليوم، لكن الأخير أشعل سيجارته ونفثها في هدوء دون أن يعير اكتراثا لصاحبه الذي علق بالقول

-أتعرف أنك تثير تعجبي وحيرتي منذ المرة الأولى التي عرفتك فيها؟

-ولماذا الحيرة.. ها أنا ذا لأجيب على تساؤلاتك كلها !

-تركض في الصباح كرياضي، وبعد الإفطار تتحول إلى مدخن عتيق، تهرب من كل هذا الجمال فقط لأنك لا تحب الهدوء القاتل للقرى والريف، ثم تعود من أجل ذكرياتك التي تبحث عنها بين الجدران وفي ذاكرة الناس، تعشق القراءة لكنك في الوقت ذاته تكره الاحتفاظ بالكتب، لم أبصر في حياتي كلها تركيبة بشرية غريبة كهذه.

-لكنني أرى أن الأمر في غاية البساطة يا صديقي

-وكيف ذلك

-القضية أنني لا أحب القيود بالمرة، أخافها، القرية بالنسبة لي مقبرة، نهاية العمر وآخر المطاف ليس إلا، المدينة حياة، أخبرني أنت.. نحن لم نجد مسرحا واحدا غير مسرح قصر ثقافة الباويطي اليتيم بالواحات بأسرها مع زواره قليلي العدد، لا يوجد ملاه أو دور

للسينما أو أي حراك أو محفل ثقافي أو فني مشهور، لا توجد مكتبة عامة واحدة يستطيع المرء فيها أن يمارس نشاطا حقيقيا أو هواية قد تؤثر في المجتمع مثلما تؤثر فيه، لكنني لست ناقما على الريف، هو الريف يا صديقي لا يجب أن يكون إلا كما هو، نهرب إليه في الوقت الذي نحتاجه، لكن لا نمكث فيه وقتا طويلا كي لا يأسرنا

-وماذا عن الكتب والرياضة

-أما الرياضة فقد اعتدت على هذا منذ الصغر وقبل تعلم التدخين أو أي عادة غير حميدة بالمرة، وأما الكتب فكما قلت لك إنني أعشق الحرية وإن اقتنيتها شعرت أن شيئا ما يحيط بعنقي ويضعني بين أغلاله التي لا فكاك منها ولا مناص.

-حسنا دعك من كل هذا.. ما هو البرنامج اليومي هذه المرة

-لا برنامج.. سأكمل لك ما جمعته أنا في الفترة التي تلت خروج الجيش السنوسي من الواحات البحرية وكيف كان الأمر مع سليمان وأهل الواحات كما روت لي أمي وشقيقي الأكبر

-حسنا.. ليكن كذلك فلنبدأ، مع أنني أشعر أن جدك كان نرجسيا بالدرجة الأولى

-لست أراه نرجسيا كما تراه أنت، إنني أرى فيه رجلا يريد إقامة قانون غير قانون الناس نفسه وأن عليهم طاعته حتى وإن كان الأمر بالغ

المشقة والاستحالة

سادت فترة صمت بينهما ثم بدأ عبد الله يسرد له الوقائع منذ العام ١٩٣١م في قرية القصر إثر حكم العمدة سليمان

ليس لأحد من الحكم بالقرية في شيء إلا هو، لم يعد ينبت زرع إلا ونصيب سليمان منه معلوم، حتى الشاة والأغنام التي يمضي بها الرعاة في البرية، فلسليمان من كل وليدة النصف أو أنه سيأخذ نصف الغنم إن مر عام دون إخطاره بالأمر شاء الراعي أم أبى، والناس على حالهم يرضون بأي شيء، كل يحاول النجاة بنفسه من بطش العمدة وعبيده وحرسه وزبانيته.

وعن المرعى فلا يجوز لأحدهم أن يرعى بأغنامه في حمى العمدة دون إذن مسبق منه، أصدر فيهم قوانين صارمة يمشون عليها ويخافون نقضها، لا يجب أن يسير المار أمام ديوان العمدة ممتطيا صهوة حماره، وأما الذي لا يملك مطية عليه أن يخلع نعليه ويمشي على الأرض بدونهما تبجيلا لحضرة العمدة، الرجل لا يحق له أن يسير مجاورا امرأته، هو يسبق فيلقي السلام عليه ثم تتبعه المرأة ناظرة للأرض لا ترفع عينها أبدا، النساء ليس لهن من إرث آبائهم قيد حبة من تمر، حتى هو كان يقرر بينه وبين نفسه أنه لا أحد من بناته يرث حتى ورقة توت، هذه قوانين العمدة.. سنها بينهم ولا من يجرؤ على العصيان أو التمرد.

في كل صباح ومن أمام قصره تمر أسماء الجارحي تحمل فوق عاتقها حزمة من الحطب، لها من المال الكثير منه ما ورثته عن أبيها، ومنه ما وصل إليها بالرهن، فمن الناس من يرهن أرضه لها شرط أن تقرضه بشروط قاسية بعض المال ليتمم زواج ابنته بشكل يليق بها أمام صهره، ومن المال ما جاء لها حين يبيع الرجال ما يملكون لمتابعة القمار في مقهى دكرور الذي كانت تسكن بجواره، كانت سليطة اللسان، يخافها القاصي والداني، لم يكن لزوجها عليها سلطان كما للرجال على النساء كلمة في القرية، ولم تكن من القصر تحت جناح سليمان كي تخاف فيه لومة لائم، إنما كانت تجمع الحطب من أرض لها امتلكتها في القصر لتبيع نصفه للمقهى والنصف الآخر لبيتها.

والأرض في هذه السنة كانت خضراء والشجر الميت قليل، فأصبح لما جمعته من حطب قيمة عالية، والناس في الواحات يشبهونها بأبيها في تحقيق ما يريد من رغبة، يقول الناس إن والدها أزنى من قرد، وأقوى من السبع في عرينه، ما من امرأة أرادها إلا وراودها عن نفسها فأتته راغبة، أو تمنعت عنه فتزوجها ليقضي وطره منها ثم يطلقها وقت شاء.

ذات صباح تمر وهي تجر الحمار خلفها حاملا ما ثقل وزنه من حطب فيشير العمدة إلى رجاله أن يوقفوها ويحضروها إليه، وقبل أن تتجاوز المرأة الحافة الأخيرة لأبوشتي متجهة إلى البركة التي تفصلها عن الزاوية السنوسية ثم منطقة السور في غرب الباويطي، لحق بها رجاله

ثم جاؤوا بها إليه، أمعن فيها النظر ثم قال

-وقت طويل تمرين من هنا في كل صباح دون الإذن من العمدة أو دفع ما يدفعه الناس عن أرضهم، ألا ترين أن لي الكلمة في كل شيء هنا أم تظنين أنني كمن سبق تنتهي سلطتهم عند باب بيتهم.

-ليس الأمر هكذا يا جناب العمدة، إني عرفت قوتك في قومك فلا مثلك أحد، لكنني باويطية ولست من أهل القصر فليس لي ما لهم.

اغتبط سليمان من قول المرأة له وتمجيدها لكنه عاد لعبوسه المعتاد قائلا

-وعليه فإن غادر من أهل القرية أحد بيته وسكن القرى المجاورة فله أن يفعل ما تفعلين وألا يكون لي حكم عليه ولا على أرضه وماله، أنت لست من بلد أحكمها وهذا حقيقي، لكن أرضك في حماي وتحت ملكي تأتين وترحلين عنها كل يوم ولا من يمنعك ولا من يسألك عما تفعلين، كم من الحطب جمعتِ، وكم من المال قد صار في حوزتك وأنا أغض الطرف عنكِ، أقول في نفسي لعلها تأتي إليك وتطلب الصفح يا عمدة، لكنك تماديتِ في الأمر وبدلا من أن تقومي بحمل الحطب على عاتقكِ جلبتِ الحمار ليكون لك عونا على ذلك، لكن هاك ما عندي، سأسمح لك بالعودة بالحمار، فلست ممن يمنعون الناس ركوبتهم، لكن الحطب سيكون غرامة لكِ على تجاهلي طوال السنوات الماضية.

-يا جناب العمدة، هو رزقي الحالي فلا تقطعه، الناس توقفت عن رهن حاجياتها ولم يعد لدي ما يكفي من المال.

-في المرة القادمة ستمرين ولك الآن الخيار إما أن تمري من هنا بالحطب والحمار وستكون أرضك ملك لي، أو تمري بالحمار على أن تعودي في المرات القادمة وللعمدة سليمان نصف ما تخرجين به من القصر.

-أبيع الأرض خير لي من هذا الذل

-قصي بكم تبلغ أرض المرأة؟

ينتفض قصي ثم يقول: جنيه يا جناب العمدة

ترفع أسماء حاجبيها في استنكار وقلق ثم تقول: أنت رجل محتال جنيه واحد ثمن لأرضي التي اشتريتها بور بثلاثة جنيهات!

يرد العمدة: وهو كذلك ليس لكِ عندي إلا هذا، ولن أسقط كلمة قصي فلكلمة الرجال في القصر عندنا وزنها، هي ليست مثلكم في الباويطي كلمة يرجع عنها القائل كالطفل حين يبصر العقاب.

تدرك أسماء ذلك الفخ الذي أوشكت على الوقوع فيه، ينتابها القليل من الصمت ثم ترفض بيع الأرض وتتخلى عن الحطب ثم تجر حمارها مطأطئة الرأس نحو الشرق حتى تختفي من ساحة أبوشتي، تسير على وجهها هائمة لا تدري بأي شيء، صحيح أنها كذبت على العمدة ولم

obeikan.com

تكن توشك على الإفلاس كما قالت، وصلت إلى بيتها ثم دلفت إلى غرفة نومها، رفعت الشراشف من فوق السرير ثم نزلت تحته، أزاحت تلك الفُرُش المصنوعة من سعف النخيل ثم سحبت مقبضا حديديا لتنظر للصندوق الحديدي الضخم الموضوع أسفله، فتحت الصندوق ثم جحظت عينها للذهب المملوء به، ابتسمت ثم قالت في نفسها " إفلاس.. عندي ما ليس عند أحد يا سليمان، لكنني لست لينة العريكة أو مستباحة الحمى، ولأقطعن ضفيرتي هذه إن لم تعد حزمة الحطب لي "

أعادت كل شيء إلى مكانه وخرجت من بيتها حتى وصلت لبيت شقيق عمدة الباويطي عبد الغفور، وجدته مضجعا على مصطبة قبال بيته يدخن نارجيلته ويعبث بيده الثانية في لحيته، كشفت له شعرها ثم جثت على ركبتيها أمامه قائلة

-أغثني يا عبد الغفور إن كان لك أن تجير ضعيفة، أنت تعرف أن زوجي لا قبل له بأحد ولكني ظلمت وليس لمثلي أن ترفع الظلم عن نفسها إلا بعون من هم مثلك.. أجرني ولا ترد امرأة جاءت لعتبة دارك عاجزة

-ما الأمر.. تكلمي

-إنه سليمان عمدة القصر، حين عدت من أرضي في القصر مارة بأبوشتي استوقفني رجاله وسلبوا مني حزمة الحطب التي أقتات على

بيعها، وقال لي أنه ليس في القصر أو الباويطي من رجل يستطيع ألا ينفذ أوامره، وقال إما أن أعطيه ثلثي نتاج أرضي التي في القصر أو أنه سيسلبها مني، قال أنه ليس في الباويطي رجال يستطيعون مجابهته، وأن له اليد العليا في الوادي الغربي كله مقاسمة مع عمدة منديشة، وقال أن عمدة الباويطي لا يحكم إلا بيته ولو شاء لعزله من مكانه وتولى هو القريتين.

احمر وجه عبد الغفور غضبا وألقى النارجيلة من يده ثم أمر أسماء أن تنتظره على عتبة الدار ريثما يعود من الداخل، دخل هو ثم رفعت هي رأسها مبتسمة تنتظر عودته وحين عاد عادت معها نفس النظرة المسكينة، رأته في كامل سلاحه يجر حصانه خلفه ثم قال لها

-سأذهب إليه الآن لأريه أن في الباويطي رجال تعجز نساء القصر أن يلدن مثلهم، وليعودن الحق لصاحبته أو لأعودن على ظهر الجواد ميتا.. هيا تعالي معي

-(بذعر) لا لا أريد الذهاب لربما قتلنا رجاله في غمضة عين

-حسنا لتبقي هنا وسأذهب أنا لأعيد ما سلب منكِ

تحرك هو ناحية أبوشتي، تابعته ببصرها ثم هرولت إلى بيت عمدة الباويطي هارون، طرقت الباب بعنف فخرج العمدة إليها فصرخت كمن تولول

-أغثني يا عمدة وإلحق بأخيك، سألته أن يتوسط للعمدة سليمان كي يعيد الحطب إلي لكنه ثار وأخذ سلاحه وتوجه للغرب.. سيرتكب كارثة لا محالة تؤدي إلى حرب بين البلدين

انتفض العمدة في وقفته ثم نادى على الخفر ليأتوه بحصانه، امتطاه واصطحب الخفر ليلحق بأخيه بينما عادت هي تختال في مشيتها إلى بيتها وقد أنجزت مهمتها على خير وجه تنتظر إما رأس سليمان أو حرب ضروس بين البلدين وثأر لا ينتهي.

لكن اللحاق بعبد الغفور أشبه بأن يلحق رجل قعيد بجواد جامح يجري على أرض مستوية، وصل عبد الغفور إلى أرض العمدة سليمان ثم حدثه من فوق فرسه

-يا عمدة.. سمعت أنك سلبت امرأة ما كانت تملك من حطب، فاعلم أنه من الرجولة أيضا ألا تجير على ما تملك امرأة، وإن أردت الجور فلتختر من يقدر أن يقف بوجهك، ولا تختر النساء العاجزات لكي لا تحتسب عليك منقصة، لأنني وإن كنت لا أتوسم فيك خيرا لكنني أعرف أنك تبجل نفسك كثيرا وتأبى أن تكون حديث النسوة في البلاد.

-(سليمان ساخرا) كبر العنب وصار له ذنب، أنا فعلت فما أنت فاعل.

-الأمر يرى لا يقال، أعد ما أخذت واجتنب حربا تهلك الصغير والكبير، لا تبقي ولا تذر أي شيء في طريقها، أنا أتحدث بالحسنى لرجل لا يريد

لنفسه وأولاده وملكه أن يبدد، لكن العبث مع الأعراض يفني كل شيء.

-يا لك من طويل اللسان، ربما لو قطع لسانك لوفرت علينا كل هذه الثرثرة.. يا قصي علم هذا الأحمق كيف يتحدث إلى العمدة

تحرك قصي نحو عبد الغفور وهو يحمل هراوته ثم شرع يهجم بها عليه ليسقطه من فوق جواده، لكن الأخير واجهه بحزم، أفلت قصي من ضربة كادت تقصم ظهره ثم دفع عبد الغفور عن جواده ولم يفلح في إسقاطه، لكز الأخير جواده فرفع قائميه الأماميين فسقط قصي أرضا، هنا نهض عبد الصمد بن سليمان ممسكا بهراوته الضخمة ثم وجه ضربة قوية لصدر الجواد فهوى بعبد الغفور أرضا، ثم شرع يضرب ضربته الثانية التي تفاداها عبد الغفور بسرعة ثم تناول الأخر هراوته وحاول قدر المستطاع أن يثبت أمام خصمه إلا أن صيحة عمدة الباويطي وخفره أوقفت القتال.

ترجل هارون عمدة الباويطي عن فرسه ثم توجه إلى سليمان قائلا

-عذرا جناب العمدة ولكنه شقيقي، وليس لك أن تعامله هكذا.

-علمه أن يتأدب في حضرة العمدة إن كان هذا العلم موجود في الباويطي، كلكم سليطي اللسان تستحقون من يقطع ألسنتكم لكم

-عفوا ولكنه صغير ليس له حكمتك وحلمك، وهب أن واحدا من أولادك تحدث إلي هكذا، أتريد مني ضربه، حتى وإن أردت فأنا لن أضرب

إجلالا لك، لكن ما تفعل سيثير المشاكل بين الناس هنا وهنا، دعني أؤدبه وسامحه.. فلمثلنا أن يطمع في حلمك.

هدأ غضب سليمان، ليس من حديث هارون بالطبع ولكن لأنه ولده تمكن من عبد الغفور الذي صعق لما فعله بالجواد في ضربة واحدة، وقضى المجلس العرفي أن يدفع لأسماء نصف الحطب فقط ويكون له النصف الآخر وانتهى الأمر، لكنه لم يكن لينتهي عند سليمان بالطبع.

في صباح اليوم الثاني ركب سليمان وسبعة من الخفر خيولهم متجهين للقاهرة، الرحلة بالجمال تستغرق أياما خمسة، وبالخيل فهي لن تتجاوز الثلاثة، هكذا كانت خطته، ثلاثة أيام للذهاب وثلاثة في القاهرة وثلاثة للعودة، يحصل فيها على صك من الحكمدار ليودع عبد الغفور في السجن، صحيح أنه تغلب عليه، لكنه لا يضمن من ينازع الملك أولاده من بعده، ولا يضمن أيضا أن يشجع هذا الحدث أهل القصر في إيقاف ما يدفعونه له، أو أن يتحالفوا في وجهه.

سار في أقصى سرعة كي يصل للقاهرة حتى كاد أن يفتك بالخيل والخفر واختصر من المسافة اليوم الثالث الذي وصل في صبيحته إلى قاهرة المعز، حتى وصل إلى مساعد الحكمدار حاملا معه ما تشتهيه الأنفس من ذهب كهدية لصديق قديم، ثم قص عليه كل ما جرى.

استمع إليه نائب الحكمدار ثم قال

-لكنك بالفعل نلت منه، كدت أن تقضي عليه لولا أن تدخل شقيقه بالأمر، لم تعد حزمة الحطب كاملة ولو أنني لست أفهم كيف لكم أن تتقاتلوا من أجل حزمة من الحطب، وتأتي الآن تريد استصدار أمر بحبسه.

-سيدي.. الأمر ليس له شأن بما فعلت، الأمر يتعلق بهيبة العمدة سليمان في قرية القصر، بل في الواحات بأسرها، تخيل أن يقال بين الناس أن هناك من وقف إزاء العمدة، ونال منه شيئا ما حتى وإن كان تافه القيمة كما تقول، ثم إن هذا سيؤلب الناس تجاه أولادي فلا ينالون الكرسي بعد موتي، كل منهم ينصب لنفسه قانونا فوق قانون سليمان، وليس لأحد أن تكون له فيهم كلمة غيري.

-لست أفهم سر إصرارك ولكن لك ما تريد، سأدخل لسيدي الحكمدار واستصدر منه أمر القبض وستعود إلى الواحات مع التجريدة التي ستقبض عليه.

دلف الرجل إلى الحكمدار في الداخل بينما ظل سليمان على الكرسي يحمل وجهه الوجوم والعبوس نفسه ويتطلع إلى صورة الملك المعلقة على الجدار، نشوة النصر والظفر تعلو وجهه وقد حقق ما جاء إليه سعيا دون عناء.

وفي أمسية اليوم الرابع تحرك سليمان وخفره الخمسة مع تجريدة

من خمسة وعشرين شرطيا إلى الواحات، حملت الخيول في السيارة الخلفية التي ستعود بالسجين وبالتمر وجزء من خزائن سليمان إلى القاهرة واختصرت المسافة إلى يوم واحد عوضا عن الثلاثة، وقبيل مدخل الباويطي هبط سليمان من السيارة وأصر أن يدخل إلى البلد ممتطيا جواده.

تحركت الحملة المكونة من قائدها وسليمان والخفر، حاصرت منزل عبد الغفور الذي خرج لهم، كبلوا يديه ورجليه بسلاسل الحديد وعمدة الباويطي جاثٍ على قدميه يرجو العفو من سليمان عن شقيقه، ثم ترجل قائد التجريدة ليخطب بين الناس بما أوعز له سليمان طوال الطريق أن يقوله

" يا أهل الواحات، إنما عاقبكم الله على فعالكم حين حط القحط بأرضكم، وساد فيكم الجوع، وكدتم أن تفنوا عن بكرة أبيكم، وكان بينكم جد العمدة سليمان، شنق ظلما بعدما رفضتم شهادة الحق حين كان لكم أن تنقذوه بها، فابتلاكم الله بحاكم أذاقكم من العذاب صنوفا حتى عادت الأمور لنصابها، والملك في أهله باق، والعرش للرجال ما ترك، لكنكم تجبرتم ثانية وجحدتم بنعمة الله عليكم فابتلاكم بالبدو الفارين من ليبيا إلى أرضكم، يسومونكم سوء العذاب، يقاسمونكم أقواتكم راغبين وراغمين، ويعمدون إلى الواحد منكم فيذبحوه كما يعمد القصاب إلى الشاة فيجز رقبتها، حتى أتاكم نصر ربكم بفرقة

من الجيش الإنجليزي طهرت الأرض منهم.

يا أيها الملأ.. فليعلم القاصي منكم والداني، أن العمدة قد نال شرف لقاء صاحب الجلالة مليكنا المفدى في قصر عابدين، وأنه أنعم عليه بمرسوم ملكي يقتضي بحق توريث بنيه حكم الأرض وما عليها، وبحبس المجرم عبد الغفور جريرة فعاله، وأننا سنعود بين حين وآخر فننزع منكم المفسدين الذين سيرشدنا إليهم عمدتكم الحكيم إلى السجون كما تنزع الشوكة من باطن القدم، لتعود واحتكم جنة الصحراء كما كانت، والآن فلينصرف كل إلى حاله "

لم يكن لأحد مقدرة أن يصف الشعور الذي انتاب سليمان في تلك اللحظة، غبطة وسرور، أو نشوة النصر تعتليه، عمدة الباويطي جاثيا أمامه على قدميه، عمدة منديشة منافسه القوي الوحيد بقي في أرضه خشية أن يناله من الخزي جانب، أهل الباويطي والقصر يخضعان له ويبصران فيه القوة ويرجون رحمته عليهم بعدما وصل إليه من قوة ومجد بين الناس، صحيح أنه لم يطأ بقدميه قصر عابدين، وأن هذه الكذبة هو الذي ابتكرها ليعزز موقفه في القرية والقرى المجاورة، لكنه متيقن أيضا أنه لا أحد من هؤلاء يستطيع الولوج إلى قصر عابدين أو حتى المرور من أمامه، هو مر من أمام القصر قبل ذلك، مهيبا قويا يحيطه الحرس من كل جانب، وأهل مصر كأهل الواحات بسطاء، فيهم من يعلم ومن يثور، وهؤلاء لا يعلمون شيئا.

علت وجهه ابتسامة وهو يطالعهم، ينظر إلى سيقانهم العارية، وأقدامهم الحافية، وثيابهم البالية الممزقة، والجندي يقتاد عبد الغفور مزهوا بردائه كديك حبشي ينفش ريشه بين الإناث ويسقط عرفه فوق منقاره ليزداد رونقا في نظرهن، رأى أن الأمر أشبه بحظيرة دجاج، الكل يقأقئ حول الطعام ومن يعلو صوته بينهم ليس له إلا الذبح.

اعتلى الساحات صمت مهيب، لم يعد لمن يقف في وجه سليمان أي قوة وطاقة، حتى بموته لن ينجلي الأمر، إنه مدعوم من الملك، سراي عابدين بأسرها تقف وراءه وتشد من أزره، وما لهم قبل بها ولا ببطشها، لقد تساقطوا كأوراق الخريف أمام الجيش السنوسي حين جاء منذ سنوات، فتراهم يصمدون أمام من هو أعتى وأقوى من البدو الهاربين من ليبيا، ثم تولى كل واحد منهم إلى طريقه بينما عاد سليمان فوق حصانه مختالا في مسيرة عسكرية مهيبة، ويسير بجواره قائد التجريدة وخلفهم يأتي الخفر والحرس.

يمر عام وقد دانت الأمور كلها لسليمان بعد الحادثة التي مرت، لكن الحديث الذي أفضت به يمن إليه في وقت سابق قد أخذه في عين الاعتبار، لكن لم يكن الوقت مناسبا، هو لم يفرح بالسلطة ليعطيها أولاده من بعده، لكنه بلغ من الكبر عتيا، صحيح أنه لازال يحتفظ بالكثير من قوته وجبروته، لكن إلى متى سيكابر، حينها نهض من مقامه وقرر استدعاء الشيخ يماني ليناقش الأمر معه، إذ صار الرجل

كاتم سره بعد الأحداث التي مضت.

سار العمدة تحت جنح الظلام باتجاه بيت الشيخ يماني، حاول أحد الخفر أن يتبعه إلا أنه أشار عليه بالرجوع، وصل إلى بيته وطرق الباب، خرج الشيخ إليه وقد تفاجأ برؤيته عند الباب، دعاه للدخول ثم أمر بإحضار الشاي.

جلس سليمان واجما يعلوه الشرود، بينما يحدق فيه الشيخ يماني بعجب حتى قاطع صمته قائلا

-لعله خير يا جناب العمدة، أراك واجما

-الخوف يا يماني.. الخوف هو ما يوجم الرجال ويقلقهم.

-أعوذ بالله، وما الذي يخيف جناب العمدة، العمدة لا يجب أن يخاف وحوله الخفر والحرس، وعنده أبناء في شدته وبأسه، وحوله قومه يأتمرون بأمره ويطيعونه في كل شيء

-ليس الخوف من هذا يا شيخ يماني، الخوف كله مما هو قادم بعد ذلك، قد مضى من عمري أكثر مما بقي، وأصبحت على حافة الموت في أي لحظة، ووددت لو أضمن لمن بعدي الملك نفسه الذي حصلت عليه.

-وما الذي يمنع، الجميع يعرف أن مرسوما ملكيا يعطي لك ولأولادك العمودية من بعدك

obeikan.com

-المشكلة ليست في الناس ولا المرسوم؛ هي في أولادي وما سيدور بينهم بعد موتي، تخيل أن يتنازعوا بعد موتي على كل شيء، العمودية، الأملاك، المال والذهب، كلها تخطف الأبصار، حتى المكائد التي تدبر في قصري مرعبة بحق لولا أنني املك زمام الأمور فيها.

-ومن يجرؤ أن يعكر صفو العمدة؟

-إن يمن باتت تخاف أن يصل جيلاني بعد موتي إلى كرسي العمودية، تخاف أن يضيع المنصب من أولادها، وفي الوقت نفسه عبد الصمد لن يرضى لأخيه أن يكون عمدة للقصر دونه

-لن يقاتل أخاه من أجل العمودية

-أول قتيل في الأرض كان أخوه قاتله

-وأنا أقول لك أنه لن يقاتل أخيه من أجل العمودية، إن أنت فرضت الأمر عليهم قبل كل شيء

-وكيف لي أن أفرض بعد موتي أيها الشيخ، الموت ما هو إلا حبل يقيد المورث عن مورثيه.

-أقصد أن تقسم كل شيء بينهم وأنت على قيد الحياة ثم يوقع الجميع على هذه الأوراق في حضرة الشهود فلا يكون لأحد على الآخر منهم حجة، وتكون أنت حفظت العمودية فيهم، ووزعت بينهم مالك بما تشاء، فلا يتنازعون عليه بعد موتك ولا تذهب ريحهم وينال منهم غريب.

obeikan.com

-وكيف لي ذلك؟

-اجعل العمودية وأقل نصيب من الإرث لجيلاني، وقسم ما بقي من الإرث بين البقية عبد الصمد وحمدي وغنام وسعد، واجعل لاثنين منهم شياخة البلد، لازال لك الحق في ذلك، فليكون سعد وعبد الصمد لأنهما الأكبر سنا بين الأربعة الباقين، ولن يكون للصغير قوة في مجابهة البقية خاصة وإن تساوى معهم في الإرث

-وماذا إن شب الصغير؟

-لن يستطيع أن يغير من الأمر شيء، جيلاني لن يترك لأحد منهم العمودية وهو أقلهم مالا، سعد و عبد الصمد سيصمتان لما امتلكاه من إرث وشياخة، والصغار لن يستطيعوا مزاحمة الكبار فيما وصلوا إليه

خرج سليمان من بيت الشيخ يماني وعقله يكاد يجن من فرط التفكير، فيمن وأولادها من جهة، وجيلاني من الأخرى، صحيح أنه ليس أقل خطرا منها عليه، لكنه ألين منهم على أهل الواحة، هو من يستطيع أن يحفظ نظام العمودية، وهو من يمكنه أن يبقيها في نسل سليمان إلى أن تقوم الساعة، وبغير ذلك لن يتم الأمر، لن يرضى لملكه ولعزه أن يتنعم فيهم غريب.

دلف إلى بيته فألفى يمن تجلس على الأريكة القابعة تحت الشباك المطل على الديوان تنظر إليه بقلق ثم تكلمت

-سليمان.. ما الأمر؟

-الخوف يا يمن.. الخوف الذي ينال من الإنسان حين يبلغ عمرا كعمري

-أطال الله لنا عمرك.. ولكن من أي شيء تخاف؟

-من الزمن ومن أولادي وما سيفعلوه بعدي

ابتسمت يمن في داخلها، هي الفرصة الثانية سانحة أن تغير من قرار الرجل شيئا حيال نزع العمودية عن جيلاني، أي شيء شرط أن يصل إليها ولدها عبد الصمد، نهضت من على الأريكة ثم جلست إلى جواره على مسند الكرسي العريض، لفت ذراعها حول منكبيه العريضين قائلة

-اجعلها لولد من أولادك توصي بها إليه بعد موتك، ولد يحمل من قوتك وعظمتك الكثير، الضعيف من أولادك لن يقدر ، سيستخف به الناس، وهم على كل حال من الأحوال غوغاء، لا يلزمهم الصمت إلى السياط، ولا يشجع قلوبهم على العصيان إلا طيبة القلب

-وأنا لا أريد سليمانا جديدا يعصف بهم

-(نزعت ذراعيها وتابعت بضجر) وما الذي تريده إن كنت كما أنت سليمان

-أريد هذا الذي يستطيع أن يمسك العصا من المنتصف، فلا هو الذي يضرب الضرب المبرح، ولا هو الذي يلين كلين الأم لطفلها حين

يرتكب شقاوته.

-ومن أين لك به؟

-سأجمعهم مساء اليوم وستعلمين.

أطبق الليل على الجميع وجلسوا متقابلين على المائدة أمام سليمان الذي وقف إلى جواره أحد العبيد يحمل صندوقا نحاسي اللون، تجشأ سليمان ثم شرع في الحديث قائلا :-

-يا أبنائي، قد مر من عمري أكثر مما بقي فيه، وودت لو أني هبطت إلى قبري بجوار أبي وجدي وليس بين أحدكم والآخر نزاعا أو شقاقا لا يفنى بمرور الزمن

-(الجميع) أطال الله عمرك.

-ليت الأمر بالدعاء وحده لكنني اليوم قد قسمت تركتي كلها بينكم حيث رأيت المناسب منها، ووزعتها في أوراق كتب عليها أن الأرض تصير ملكا لمن يحمل الصك إذ خرج من هذا البيت، وأنه لا عودة في ذلك، وأنه لا بدل ولا تعديل في القسمة من خلالي إن رضيتم بها وخرجتم، وأن لكم فيما بينكم الحق في استبدال أي شطر من أراضيكم مع بعضكم البعض دون الرجوع إلي.

ساد الصمت بين الجميع وجعل سليمان يقلب البصر في وجوههم التي اعتلاها القلق جراء ما سيقوم به، وكل يمني نفسه بأكبر شطر من

الكعكة التي سيقسمها عليهم في تلك اللحظة، وقرر سليمان مقاطعة الصمت قائلا

-جيلاني ستكون أقل إخوتك الذكور نصيبا في الأرض والمال، لكنك ستنال منصب العمودية، ستتقلده وأنا على قيد الحياة، عبد الصمد وحمدي وغنام وسعد إن لكم من الإرث ما هو أعلى منه وكلكم في ذلك سواسية (يلتفت إلى بناته) لا يتسلل إليكم الشك أني نسيتكم، إن لكم من التركة نصيب الولد منها، ولا تظنوا في أنفسكم أنه قليل، إنما على الرجال حقوق أكثر من النساء، ولو أني وجدت أن المال سيصل إلى يد الغرباء الذين تزوجتموهم لكنه شرع الله، ومن أنا كي أخالف شرع الله.

ساد الصمت بين الجميع وتباينت ملامحهم ما بين الصمت والدهشة والوجوم، فاضطر سليمان إلى أن يقطع دابر الصمت قائلا

-أمن يعترض على ما فعلت؟ فمن التزم صمته منكم فليصمت للأبد.

ران الصمت على الجميع ولا يدري سليمان الذي ضاق صدره بالأمر أكان الصمت خوفا أم موافقة، فالأمر في نظره يرضي الجميع والقسمة عادلة، بيد أنه يعطي بناته نصيبهن من الإرث مكرها، لم يكن قط ليحب أن يكون له ذرية من نساء، الرجال عزوة. هكذا يرى وهكذا يلمس حين خانت عائلته الدهر في وقت مضى وأعدم جده على مرأى

ومسمع من الناس مع عميه، وحين أذل والده بصورة بشعة وفقد هيبته ومات حسرة بين ذراعية في الغزو السنوسي للواحات.

خرج الجميع من عنده بعد العشاء وكل يتشح بالصمت، لم يكن بينهم ظافر رغم كل شيء، الأولاد يريدون الحكم صغيرهم وكبيرهم، ولا يريدون فقد شيء من المال مع السلطة التي سيصلون إليها، والفتيات يردن نصيبهن الكامل، فلن تطال منهن واحدة شيئا بعد موته، لم تستطع أي فتاة من فتياته أن تسامح ما قام به، هكذا تناجين بينهن بعد الخروج من بيته دون أن يعلو لأي منهن صوت، يرون أنهن تعرضن لمظلمة شديدة وليس لهن فيها أي حول أو قوة للدفع أو الرفض، ليس للضعفاء في كل الأوقات إلا الصمت لكنه ماله شاء أم أبى يعطيه لمن أراد حيا، هكذا يفهمون، وهكذا يرون بأم أعينهم تفرقته العلنية بين الرجال والنساء من نسله، الإرث يصل لمن شاء الله أن يصل إليه، وليس له دخل فيه، ربما لا حق لهن في العمودية أو الحكم أن يتنازعن عليه، لكن المال للجميع، هكذا في كل المواريث يعرفون، أزواجهن لا يستطيع أي منهم الحديث والاعتراض، إنه سليمان على أي حال، إنه العمدة فمهما تجاوز سنه فهو يحفظ هيبته بين الجميع، ومهابته في القلوب لا تنضب أبدا، وكم بات في المدينة موتور له عند سليمان ألف ثأر.

*****

الفصل السابع

الواحات البحرية – جنوب الباويطي ٢٠١٤م

جلس عبد الله أمام حاسوبه في الصباح الباكر يتطلع شطرا من الأخبار، فقد قضيا أمسية اليوم نفسه الذي لم يخرج فيه هو أو حسام لجمع المعلومات بالحديث عن شطر من التاريخ الذي يبحث عنه صديقه الزائر، فقد اكتفى الأخير بما ناله في هذا اليوم على أن يكملا الجمع في اليوم التالي، بعد أن أمضى أمسيته مشغولا يتحدث إلى أصدقائه ويرسل إليهم صورا عن الواحات البحرية وما أبصره فيها منذ جاء، الشغف هو الشعور الأمثل الذي يطال الإنسان حين لا يصل إلى ما يريده من الأشياء جميلة كانت أو سيئة، لكن هذا الشغف قد يزيد في بعض الأحيان وقد يموت في أحيان أخرى حين يبصر المرء الحقيقة بأم عينه، هذا ما فهمه عبد الله وأصدقائه يتابعون الصور التي استخدمها حسام نفسها، والتي يرسلها تباعا على صفحاته الخاصة بمواقع التواصل الاجتماعي، ثم ينتقل من تلك المواقع الاجتماعية إلى محرك البحث جوجل، يكتب عن الواحات البحرية ثم تظهر له إشارة

بمقال من صحيفة اليوم السابع عن تقرير أعده أحد الصحفيين عن زيارة الملك فاروق للواحات البحرية في أواخر الأربعينيات.

بدأ يقرأ التقرير بشغف لكن ما هاله هو كم الافتراء أو الادعاء الموجود في التقرير والكذب الصحفي الذي يطلق بلا هوادة، ابتسم قليلا ثم أطلق سلسلة من الضحكات المتواصلة على ما أبصر في المقال دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن الصحفي الكاتب، إن مهنة الصحافة ليست كما عهدها في بريطانيا.

قام بمشاركة المقال في صفحته الخاصة ثم دون أسفله تعليقه

"أن تتحدث عن أي بقعة من شتى ربوع مصر أمر سهل جدا، لكنك حين تتحدث عن بقعة بعينها ومدينة بعينها لابد لك أن تكون من أهلها أو زائرا مقيما فيها أو حتى قضيت فيها شيئا من سنوات عمرك القصيرة أو الطويلة، هذا ما كنت أرجوه من الصحفي اللامع الذي أضاف نقطة سوداء في صحيفته، وقام بجريمة تعد كتابة تحقيق استقصائي عن الواحات البحرية متمثلا في فترة وجيزة وهي زيارة الملك فاروق للواحات، كان حري به أن يعرف التواريخ أولا، وأن يعرف أن الوجود العسكري البدوي الليبي انتهى بالكاد من مصر مع بداية العشرينيات وليس في الأربعينيات كما ذكر في مقاله، وحري به أيضا أن يدرك أن الواحات لم تكن لتصمد أو ليكون لأهلها الجرأة وهم لم يعتادوا أبدا على خوض الحروب في أن يصمدوا أمام الجيش السنوسي

كتلك العائلة التي تحدث عنها، إلا أنني أرجح الأمر إلى شقين لا ثالث لهما الأول أنه محق في كل ما قاله وأنني ما كتبت هذا إلا بتأثير زجاجة من الخمر اقتنيتها من إحدى حانات برمنجهام، أو أن ما قدمته له هذه الأسرة من كرم للصحفي قضيا بداخله على ضمير المهنة وأن لقمة العيش تجبرنا أحيانا على بيع جلودنا "

ضغط على زر النشر وهو يحمل ابتسامة المنتصر، لكن وقتها.. أخرسه الوجع و طنين الذكريات في رأسه، ومثل ما جاء قرر العودة ثانية إلى بريطانيا بعد صراع دام في رأسه حتى الصباح، لا شيء يبحث عنه هنا ولم يعد شيء باق في الواحات ليرجوه، باتت يداه تشتاق الفرك لمقاومة الصقيع الذي ينتظر في برمنجهام، السماء الملبدة بالغيوم، اللون الأخضر الذي اشتاقه والثلج الذي نسي نضارته، أيقن أن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل أو البقاء، هذه الأرض لا تصلح إلا للذكريات فقط، الزيارة الخاطفة في أيام متباعدة هي الحل الأمثل، هكذا يكون الحب، لا يجب أن يتم على وصال دائم، بل لابد من الفراق ولو قليلا ليدرك المرء قيمة الحب نفسه، وليعرف كيف يسيطر على عواطف الشوق التي تحرقه.

بات ممزقا من الداخل بكل ما تعنيه الكلمة، أصبح مشتاقا أكثر للحانات التي تسكع بها على جانبي الطرقات، المعطف الأسود الثقيل الذي كان يغطي جسده في الليالي الباردة، كل شيء في بريطانيا بات يشتاق

إليه، حتى الصحيفة التي كان يعمل بها، جلسات الأرشيف والمكتبة مع السيدة مارجريت والسيد دونالد، مزرعة صديقه جون شمال إدنبره، حيث يستطيع لمس الريف نفسه الذي اشتاقه في الواحات والذي جاء به من القارة العجوز إلى هذا المكان طاويا آلاف الكيلومترات من أجل ذكريات شاردة عبرت ذهنه في لحظة شوق، هو الآن يغفر للدكتور محمود نسيانه لكل شيء في سبيل غمرة الحب التي اجتاحته، لكنه لا يستطيع أن يغفر لنفسه انطفاء الشوق الذي كان يشعر به وهو هناك، وفي غمرة الشوق باتت رائحة أشجار الكافور والشاي تزكمان أنفه، إنه لا يعرف ما يريد ولا يعرف مبتغاه حقا، كل شيء هنا يجدد في عروقه الدم، لكنه لا يطيق البقاء مع هذا الكم الهائل من التغير الذي حدث في المكان.

أسند ظهره للجدار وهو جالس على كرسي المكتب الوثير وأمامه كوب من القهوة كاد أن يتجمد من النسيان، ربما لإنشغاله بالحرب التي شنها على الصحفي غير الواثق من مصادره، أسبل جفنيه بعد أن ارتشف قهوته الباردة، ثم شرع يتذكر رواية شقيقه الأكبر له عن عودة عبد الوهاب بعد أن غادر بيته، ولم ينس أيضا أن يسجل الحدث لحسام.. كي لا يضيع الوقت سدى

إنها مدينة الباويطي في العام ١٩٣٣م

يعود عبد الوهاب الحجار الذي ترك خلفه كل شيء إلى البيت، يصل

إلى بيته قبيل صلاة الفجر بقليل، تنتفض الزوجة حين رأته فرحا، ترفع ضوء المصباح إليه، تكاد تقسم أنها تحلم وأن ما تراه خيال عقلها الباطن وليست الحقيقة التي تتمنى حدوثها منذ هجرها بغير سابق إنذار، كان حديث نسوة المدينة عنها في غيابه يقهرها، يتغامزن عليها بين حين وآخر بما يسم البدن، كانت تسمع ما يقال وتلتزم الصمت، وكل نيران الوجع تحرق فؤادها تحتسب صابرة شتى صنوف الألم، هي لم تلد ما يدعم الظهر غير سليم، ولدها الوحيد، والعرف هنا أن مقام الأولاد من الزوجة في بيت زوجها كمقام الأوتاد التي تعصمهم حين تهب ريح عاصفة.

تقول إحداهن

- فقط لو أنها جميلة ما هجرها قط، لكنها لو تزوجت بقرد لفر منها

ثم تستطرد الثانية

-هي امرأة على أي حال لا تستطيع أن تبقي باب بيتها مغلقا فيأتي الزوج حين يشاء ويرحل حين يشاء

وثالثة تقول

-هي صفة أصيلة في هذه الأسرة، الأب امتلك الكثير من الخدم وكلهن نساء، الابن الأكبر فر مع واحدة من الجواري ولقي حتفه معها، وها هو أصغرهم يرحل تاركا كل شيء، أقسم أن سليم الصغير سيفعل فعل

أبيه حين يشب، الأمر يتكرر مع رجالهم في كل جيل.

لكنه كان مختلفا في كل شيء حين عاد، لحيته باتت طويلة، صار هادئ الطبع قليل الكلام شاحب الوجه، طافت حوله وهي تحمل إناء البخور لسبع مرات، هلت وقرأت المعوذتين ثم جلست تحت قدميه وقد اغرورق جفنها بالدموع، لا تعرف أهو نصر الله لها حين عاد، أم هو قطع لألسنة النسوة كما دار بين يوسف وزليخا وعزيز مصر، ينصرها الله فمن يغلب الإنسان بعد نصر الله له.

جلست تستمع إليه وبدأ هو في سرد ما جرى

"رحلت من البيت مكفهرا واجما، وعلى القلب عظيم الأثر من العصيان، تهادت الناقة مع القافلة إلى المنيا، المكان نفسه الذي لقي فيه شقيقي حتفه بأمر من أبي، لكنني رحلت بعيدا صوب الفيوم، بين العرب والبدو طاب المقام، وهناك جافاني النوم أياما عدة، حتى ذلك اليوم المحتوم، رأيت نفسي أمام ضريح الشيخ الباويطي، والناس يصطفون قبالة بعضهم، تنهمر الدموع من عيني ولا أجد لها سببا واضحا، حاولت مرارا أن ادخل بين الصفوف، أن أذكر الله فتعثر لساني وفقدت القدرة على الكلام، بدأت الأبخرة تعلو وتغشى البصر، ورجل بين الحضور يهز رأسه مسبلا أجفانه، ثم فتح عينه ناظرا إليّ، خرج من الصف وعض على شفتيه بأسى وصاح في وجهي " رزق الناس على رب الناس " ثم أغمض عينيه وعاد للصف ثانية، ناديته فلم يخرج

صوتي من فمي، حاولت أن أناديهم فلم يسمعني أحد، خارت قوتي وسقطت أرضا وشرعت في بكاء مرير، ثم تجلى لي الشيخ أحمد، كان يمتطي جوادا أسمرا وعمامة خضراء فوق رأسه، وكان وجهه يشع نورا كالبدر ليلة التمام، لكنه لم يبتسم لي، أخبرني بغضبه مني لكل ما فعلت، يقول لي بصوت لازلت أسمعه في أذني " ومن أنت أيها العبد الفقير لتعارض أمر ربك، ومن أنت لتحرم ما أحله وتحل ما حرمه، ماذا ستكون بعد سنين طوال أو قصار إلا جيفة يأنفها الناس ويوارونها التراب خشية أن تفوح بينهم، من التراب أصلك وإليه مقامك ومنه بعثك، فلا تتجبر كمن خلق من النار، فليس مصيره إلا إليها، وهو لا يسعى إلا لجرك معه فيها " حينها سرت بجسدي قشعريرة ثم انتابتني رعشة مفاجئة، قلت له ولكن يا سيدي الأمر وصل إلى تزويج ابنتي دون علمي.. قاطعني بحدة " بل آن أمر ربك، وما كان ليتم إلا في غيابك، وهو خير عقاب كي تعرف أن حدود قدرته مطلقة، وأنه سيفعل ما أنت ترفضه حتى وإن بذلت في سبيله كل ما هو مستطاع "

ساد بينهما الصمت وهي تستمع إليه، جال ببصره إلى السقف قليلا ثم عاد متابعا

وغاب الشيخ عني، زادت الوحدة والألم أكثر من ذي قبل، وزاد افتقادي للنوم والراحة، كأن القلب لم يعرفهما في خفقانه قط، ومرت أيام حتى عاد الشيخ إلي ثانية على نفس الجواد ثم قال لي " سأعلمك ما أعطاني

اللّه إياه، خذ العلم ولا تقف به على حدك، ولا تخرج ما في جعبتك دفعة واحدة لغيرك فيضل، ولا تكتمه فتلجم يوم البعث بالنار والغضب، ولا تعطه إلا لمن يستحق، فهناك من يعلم ليتباهى، وهناك من يعلم ليعلم الناس، وهناك من يعلم ليظهر بين المعرفة نسيج الكراهية الذي ختم اللّه به على قلبه، وللعلم خفايا وطيات، وما للبشر منه إلا قليل، يعلمون من ربهم بإذن، ويفهمون بإذن، ويظنون أنهم يتحكمون بكل شيء في الدنيا، لكن اللّه هو من ذللها لهم "

ثم بدأ معي بالقرآن الكريم، وكان لصوته حلاوة رهيبة، كأنه طير يغرد بين الغصون في لحظة الشروق، بدأت معه أحفظ القرآن حتى أمرني بالعودة إلى الواحات ثانية، عدت حيث أمرني ممتثلا لأوامره، متابعا لحفظي حتى تعود الروح لخالقها مرة أخرى.

انتشر الخبر في الصباح مع الشروق بالباويطي كالنار في الهشيم، وأقبل الناس من كل حدب وصوب يلقون التحية والسلام على العائد بعد غيبة طويلة من رحلة للمجهول، وفي الداخل كانت زوجته في أوج زهوها وشموخها، انتصرت رغم تغامز النسوة ولمزهن، جئن وقد نسين ما فعلنه بالأمس كأن شيئا لم يكن، لكن ما كان لها أن تنسى، وما كان لامرأة قهرها الزمن في يوم من الأيام أن تنسى حتى لو انتصرت على ظالمها في نهاية الأمر، الإشكالية برمتها جرح نفسي وداخلي عميق، لن يندمل مهما مر عليه الزمن ولن يظهر إلا في وقت الوجع.

وطرح الطعام أمام ساحة البيت المقابلة في نهايتها إلى منطقة السور، ولم يكن الطعام إلا خليط من الأرز المالح باللبن، عودة الغائب عن البيت إن كان سيده تشبه عودة الروح للجسد ثانية، أو عودة الماء للأرض التي جففها العطش بعد فترة طويلة من البوار والتصحر الذي أصابها، يجتمع الغلمان ويتناوبون التهام ما يفيض من الرجال بعد الوليمة، الكل يسعد بسعادة أهل البيت والكل بحزنهم يحزن، الكل هنا في هذه الأرض بيت واحد وإن اختلفت الطبائع وتخالفت النفوس فيما بينها.

لكن عبد الوهاب في هذا الوقت كان مشغول الذهن بأمر آخر، إنه حمدي.. لم يأت لزيارته حتى الآن، تراه لم يستطع نسيان ما جرى في اللقاء الأخير بينهما، كان حمدي آخر من قابل ساعة الرحيل، وكان يود لو كان هو أول من قابل في عودته للبيت، يمضي اليوم وهو لا يشعر به مطلقا حتى تغرب الشمس، يصارح زوجته بما يجول في خاطره من ألم تجاه صديقه، ثم تخبره بالمرض العضال الذي صاب الرجل بعد رحيله وأنه حبيس بيته لم يعد يستطيع الخروج.

أشرقت شمس اليوم الثاني حين صاح المؤذن في المساجد بموت حمدي، لم يكن على قلب عبد الوهاب صدمة أشد منها، ألا يستطيع رؤية صديقه مطلقا، حتى بعد العودة وبعد كل ما جرى، هرع على غير وعي إلى بيت حمدي، لم يكن ليصدق أن الأمر يمضي هكذا وبهذه

السرعة، وهو يركض كالمجانين في الطريق بات يتمنى أن يخطئ منادي المسجد في الاسم وأن يكون الميت شخص آخر، لكن لا أحد في الباويطي ينتهي اسمه بعناني غيره، يركض ويرجو ألا يرى على باب البيت أحد، يقف على مشارف البيت ويبصر الفرش وهي ملقاة على جانبي الباب، والناس تقف حولها في صمت، وابن حمدي الأصغر على عتبة الباب بأعين حمراء من فرط البكاء، يبصر عبد الوهاب فاغرا فاه وقد ملأ الدمع عينه، ينظر في وجه الولد ويرجو أن يكذبه، أن يقول له أن أي شخص آخر قد مات إلا حمدي، حمدي لا يموت، لا يجب أيضا أن يموت قبل أن يلتقيا، قبل أن يتعاركا، أو حتى قبل أن يتصافيا فيما بينهما.

تنهار قوته شيئا فشيئا ويحاول أمام الناس بكل قوة أن يتماسك، يدخل إلى الباب يحتضن ابن حمدي الأصغر ويفقد قوته، ينهار في بكاء مرير والناس من حوله يذكرون الله ويربتون على كتفه، يدخل إلى الغرفة وينظر إلى جثته المغطاة، يحاول أحدهم منعه فيدفعه بقوة نحو الباب الخارجي فيتحطم، يطلقون له العنان، يدخل فيكشف وجه حمدي، تفر دمعة أخرى من عينيه ألما، يقبله بين عينيه ثم يتحدث إليه بعد القبلة

-حمدي.. أيها الجبان، كيف لم تستطع أن تنتظرني، ألهذا الحد ساخط أنت عليّ؟ هم يقولون أنك مت!! لكنهم لا يعرفون أن هذا مزاح فيما بيننا، هيا قم وأخرس ألسنتهم ولا تخف، قم أنت تكذب فقد اتفقنا أن

نموت معا، لا تخلف وعدك فالأحرار تلزمهم بالوعد ألسنتهم وشرفهم.

لم يجب حمدي، ولم ينطق عبد الوهاب بالمزيد، دخل المغسلون إلى الغرفة وخرج عبد الوهاب مستندا إلى الناس حتى فرغ الرجال منه، حملوه على النعش وتوجهوا به إلى جنوب الباويطي حيث المقابر الجديدة خلف التل، واكتملت مراسم الدفن، وحين عاد الرجال وضعت جارة له مولودها الأول، كأن الموت يسلم الميلاد أو أن الحياة أشبه بسباق تتابع، واحد يسلم الآخر ثم تمضي وكأن شيئا لم يحدث مطلقا.

obeikan.com

الفصل الثامن

الواحات البحرية – قرية القصر – معبد المفتلا ٢٠١٤م

تشرق الشمس على استحياء بعد مرور أيام قليلة لعبد الله في الواحات البحرية، السماء الملبدة بالغيوم تضفي على نفسه شعورا غريبا، إنه نفس الشعور الذي يلمسه في طفولته بالمملكة المتحدة، للسحب سحر غريب على النفس البشرية، هي تغطي الحقيقة الدائمة أو أحيانا تغطي ما لا نريد للنفس أن تراه، وغالبا لا تحب النفس البشرية أن ترى الحقيقة، إن أسوأ اللحظات التي بإمكانها أن تمر على المرء تلك اللحظة التي يشعر فيها بأنه قد تم خداعه، أو أنه كان على غفلة من أمره ثم أصابته استفاقة متأخرة جدا فبات لا يدرك ما فاته ولا يعود لما كان عليه في الماضي.

نهض من سريره ثم احتسى قهوته التي خفف شروده الدائم من وطأة حرارتها اللاذعة، ثم خرج إلى سيارته محددا الوجهة نحو معبد المفتلا في غرب قرية القصر حيث ذكرى أخرى تراوده وزيارة جديدة.

ظل هادئا طوال المسافة بينما بدا له من سكون حسام إلى جواره أنه

لازال حتى اللحظة يغط في سبات عميق، يتهادى بالسيارة على الطريق المؤدي لغرب الواحات البحرية، حتى وصلا إلى مشارفها الغربية حيث التل العظيم الذي يعلو بُسُطا طويلة من النخيل الأخضر تحته، وعلى يمينهما كانت الرمال صفراء كالصحراء القاحلة التي تحيط الواحات البحرية من كل جانب، تنتشر المقامات التي باتت أسماؤها مجهولة لأغلب الناس في المكان، ما عاد يكترث لها أحد، لقد كانت فكرة غريبة أن يقررا زيارة الآثار الفرعونية في هذه المنطقة – أو ما بقي من إرث تركه الفراعنة – وهو يتعجب.. كيف للناس ألا يدركوا قيمة هذه الكنوز، في وقت سرقت أغلب الآثار المصرية وكانت تعرض فيه أمام عينيه في متاحف بريطانيا حين جاءت إما عن طريق المهربين واللصوص أو مقتني التحف الأثرية النادرة أو حتى تلك التي سرقت في فترة الاحتلال البريطاني لمصر، كلها أخذت عنوة أو على حين جهل، أوقف السيارة، ترجلا منها ومشيا حتى بوابة المعبد الخارجية، ثم دفع حسام ثمن تذكرتين ليلجا إلى المعبد برفقة أحد العاملين بالمكان، بدأ العامل يشرح لهما تفاصيل المكان بدقة تناسب معرفته، شعر عبد الله حينها بقشعريرة باردة في جسده، أخبرهما الرجل أن نصف ما كُتب على الجدران قد اختفى جراء اعتداء الأهالي بغير قصد على أحجار المعبد والتي اتخذوا منها بيوتا، ظلا يمران بين غرف المعبد حتى وصلا إلى الغرفة الأخيرة.. غرفة الكهنة ورجال الدين، كان الجو

في الداخل معتدلا على نقيض الخارج، الصور إما مشوهة أو منقوصة، لكن هذا ما تم إنقاذه من المعبد، ثم أبصرا صورة حاكم الواحات البحرية في ذلك الوقت، الشعر المنساب خلف الرأس والنعل هما ما كانا يميزان الرجل عن بقية الشخصيات في الصورة المرسومة.

خرجا بعد أن انتهت جولتهما السياحية إلى خارج المعبد، يتبعهما الرجل على الباب ببصره ثم هبطا التل الرملي إلى الأسفل، وفي الهبوط هاجمت عبد الله ذكرياته مرة ثانية، على هذا التل يذكر لهوا كان يقوم به، كانوا يهبطون التل وهم يتمرغون في الرمال حتى يصلون إلى سفحه، وهناك عند سفح التل الرملي كانت عين المفتلا ماؤها فاتر وعذب، يهبط فيها الرجال طيلة النهار فيغتسلون ويقضون يومهم بلا مشقة وتعب حيث يذكر في زياراته السنوية حين يعود من المملكة المتحدة، لم يكن للحياة أطماع ولا أنياب حينها، اليوم ماء معبد المفتلا يغلي بشدة، كحال كل الآبار الموجودة في الواحات البحرية.

أما عن ذكريات موسم التمر فليس لأحد أن ينساها، هو الموسم الأول في القرى كلها، يجتمع فيه الغريب والقريب تحت ظلال الأرض حيث تطرح النخيل ما تجود به على الناس في وقت أعطوها هم كل شيء فردت لهم العطاء بالمثل وأجزلت لهم إياه، يهل على كل حقل قاطع العراجين، ويكون هذا الشخص خادما للأرض، أو متملكا بنظام الاشتراك إذ يطلقون عليه هناك – ولا زالوا – نظام "الجعالة"، ويكون

للرجل ملكية في الأرض مدى الحياة بشروط معينة كانت فيما مضى أن يكون له الربع من إنتاج الأرض مع عرجونا واحدا من إنتاج النخلة، ثم تطور الأمر لأن يكون له ربع ما يرد من الأرض، ثم زاد ليصير الثلث، حتى وصل إلى النصف.

جلسا على تل الرمال المطل على البئر في الأسفل ثم تسللت إلى مسامعهما أحد الأغاني البدوية التي يتنغم بها أحدهم، يتذكر عبد الله ما روت له أمه عن موسم جمع التمر في الواحات البحرية، الكل يسير في طابور متناغم، والحمير تقود عربات الجر كأنها تسير في قافلة صحراوية تحمل الزاد إلى أرض بعيدة، وعوضا عن الأغنيات التي ينشدونها في هذا الوقت أو المذياع الذي يصطحبونه للأرض كانوا ينشدون الأغنيات القديمة ويطربون بها

عينه عالحلة والحلة فاضية

عايز يتجوز وأمه مش راضية

عدى عليا الزين ورأيته

حتى المغرب ما صليته

وتظل الأناشيد تهدر في الطريق ذهابا وإيابا حتى ينتهي العمل في المساء ويعود الجمع محملا بالثمار من الأرض.

بات ينظر للنخل القائم والمكسور والمحروق بفعل فاعل أو بخطيئة فلاح

في أرضه، فللنخل قيمته بينهم كأنه ملاك الرب الذي يفرد جناحيه عليهم فيغطيهم بمنه ورحمة، "كل شيء في النخلة له قيمة" هكذا قال له عم حسن " للجريد قيمة في صناعة الحصر وسرج الحمار والكراس الخشبية، للألياف قيمة في صناعة الحبال والمقاطف التي نضع فيها البرسيم أو الغلال، للجذوع وقواعد الجريد قيمة في إشعال النار وفي بناء البيوت، للتمر فائدة الأكل، وللنوى فائدة إطعام الماشية، النخلة كلها خير يا ولدي وليس للناس عنها غنى".

هبطا من الأعلى ناحية البئر ثم وقفا على الحافة وعيونهم تبصر البخار المتصاعد من حوض المياة بينما يدلدل أحد الصبية قدميه في الماء على بعد أمتار من الحوض دون اكتراث لغليانها، والصبية من حوله يعبثون بعش للعصافير قد تحطم وتكسرت بيضاته بعد إذ هجروا الأم بعيدا عن صغارها، واليمام في الأعلى يحدق من فوق شجرة الكافور، يبصر الأرض فلا هو يستطيع أن يقربها فيفتك به الصبية، ولا هو يستطيع أن يحلق بعيدا فيهجر الأرض التي باتت تشكل شقا كبيرا منه.

أشار حسام للطيور التي تحلق بين الأغصان وهو يطرب بالمنظر قائلا :

-أليس من الذنب أن يكون هذا الجمال كله في مصر ولا نستطيع أن نسمع عنه شيئا؟

-طيور مهاجرة يا صديقي وليست مقيمة لنأتي إليها كل يوم؟

-وما المشكلة في المجيء كل يوم

-أتعلم.. إن الطيور تشبه البشر كثيرا في طباعهم، تلك التي تربت في البيوت ما كان لها أن تغادر أبدا، هي لم تحاول بالأصل أن تغادر، لا تنتظر شيئا إلا سكينة الذبح، هذا أمر اعتيادي.. لكن الأمر غير المفهوم هو الطيور الحرة الطليقة التي تستطيع الطيران، ما الذي يربطها بالأرض حتى تعود، تلك هي المعادلة التي لا تتزن أبدا.. وهي أن يكون العشق للأرض والوطن الأول، حتى أنني في هذه اللحظة بات أفهم سر شعوري بالراحة النفسية حين أخطو بقدمي في كل شبر من المكان، تلك الذكريات التي تطل علي وتحاصرني، هي نفسها التي أجبرتني على العودة إلى الواحات مرة أخرى، ليس لأي ذكرى في الرأس قيمة كذكرى الوطن، في الوقت نفسه لا استطيع نسيان ذكرياتي في بريطانيا وإقامتي هناك، لكنها ذكريات لا يشوبها الأمان، ومفهوم الأمان الحقيقي هو أن تكون في أرضك حتى وإن كنت أعزلا في مواجهة جيش كامل مدجج بالسلاح، يكفيك إن مت أن هذا التراب يعرفك جيدا وسيحميك إن لزم الأمر.

-(حسام بسخرية) ما بالك قد أصبحت فيلسوفا

-ليس للأمر علاقة بالفلسفة أو الحكمة يا صديقي، الأمر كله يرجع

للنفس البشرية وما تحويه من بساطة أو تعقيد

سار عبد الله قليلا ناحية الشرق ثم أشار لحسام بسبابته إلى بناء متهالك يبعد عنهم لمسافة كبيرة قائلا :

-أتدري ما هذا البناء القديم ؟

-(بضجر) وهل تظنني من أهل الواحات لأعرف كل شيء عنها ؟

-(متجاهلا التعليق الأخير) اسمه بيت الدورية، هنا كانت تقام سباقات الخيل في عهد العمدة سليمان، آل أمر البيت الآن لهيئة الآثار، لذلك تراه منهارا تماما كضريح الشيخ الباويطي الذي يسد باب ميضة المسجد حتى اللحظة، كان ملاك الخيول وقتها في الواحات بمثابة ملاك أفخم السيارات في الوقت الحالي، وقد أسس العمدة هذا البناء للخيالة والشباب، تقام له الحفلات والمناسبات التي انقطعت في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي بعدما شاخ العمدة وترك زمام الأمور لأولاده

-لكأنك معجب بسليمان ؟

-أصارحك القول.. رغم كل ما قيل عنه من ظلم وديكتاتورية وتسلط إلا أن شخصيته تروق لي، هو مزيج متناقض من الصفات لا أفهمه، ورغم ذلك نعم أنا لا أنكر إعجابي به ولا استنكر افتخار قومه به

-هل لديك مزيد من الأخبار عن هذا المكان أو عن موت العمدة، أنا لم

أقطع كل هذه المسافة من أجل هذا فقط

-لا تتسرع سأملي عليك ما أعرف

ثم بدأ يروي له وقائعاً حدثت في القصر في السنوات الأخيرة من عمودية سليمان عام ١٩٣٣م وما جرى منذ تولى ولده جيلاني المنصب بعده ...

مرت فترة منذ تولى جيلاني مقام والده في الديوان، لكنه لم يكن يجلس مطلقا على الكرسي، كان يرى في القرية ذاهبا وعائدا دون أن يعرف للراحة طعم، ثم أوقف نظام شطر العمدة المعمول به في الأرض التي تنتج الماء للمرة الأولى، والذي ابتدعه شيوخ البلد وطبقه سليمان بحذافيره على الفلاحين، ساد في البداية في الديوان هرج ومرج، لكن لم يستطع أحد إلا أن يطيع أوامر جيلاني، سليمان لم يعد يكترث لكل هذه الأمور، تركها كلها فوق رأس جيلاني، وقد أمسى محجما في غالب الوقت عن الحديث، وكان الناس يرون جيلاني لين العريكة، وأقل من أبيه في سطوته، شجع ذلك بعض من الشباب في الباويطي أن يتجاوزوا معه أثناء تجوله، وكان نصيبهم من العقاب قاسيا، ليس من الحرس أو الخفر الذين كانوا يحيطون بسليمان وأحاطوا بجيلاني من بعده، بل من جيلاني نفسه الذي أذهلهم حين حمل الجواد من رأسه وأجبره على الوقوف بقدميه الخلفيتين.

كان جيلاني ثمرة الصبر التي حصدها أهل القصر بعد عذاب مرير تجرعوه تحت بطش سليمان وقوته، لكن الزمن لا يمهل الناس على أوقاتهم السعيدة، وكأن السعادة أصبحت شيئا يوصف لهم فقط، رحل جيلاني مع سليمان ومع أشقائه إلى القاهرة، مرض عضال يكتنفه فيحيل جسده إلى جسد طفل صغير، يدخلون على الطبيب فيختلي بالأب الذي شاخ قائلا " خذ ولدك وعد به إلى بيتك يا عمدة، فلم يبق من عمر الرجل إلا القليل " يتحركون والهم يعلو الوجوه ثانية صوب الواحات، لم يكن لأحدهم شطرا من شعور الحزن مثل ما أطبق على قلب سليمان، أن يمرض ابنك فلذة كبدك أمام عينيك، وأنت لا تملك إلا أن تحدق فيه دون أن تفعل شيئا، ظل جيلاني يهذي كما كان سليمان يهذي كأنهما تقاسما المرض، وصلوا إلى منطقة البحور في طريق الواحات حيث أظلم الليل، وقد قرروا المبيت فيها حتى الصباح ليصلوا بعدها إلى الواحات، جلس سليمان أمام خيمته بعد أن استدعى عبد الصمد ليحدثه

-أتدري يا عبد الصمد، ليس هناك ما هو قاس على الرجال أشد من أن يبلغ الواحد منهم أرذل العمر، فيبصر بنيه يتساقطون بين يديه كما تسقط أوراق الشجر قبل الشتاء، فلا هو يقاسمهم عمره، ولا هو يستطيع التخفيف عما هم فيه من ألم.

-رعاك الله لنا يا أبي، ومن لنا بعد الله سواك، أنت الجدار الذي

نستند إليه حين تقسو الدنيا علينا فلا نجد غيرك

-ربما يتهاوى الجدار يا بني في يوم ما، فإن سقط ما أنت فاعل.

-هي إرادة الله التي لا مفر منها، لكن حين ينهار الجدار عليك أن تكون أنت الجدار، قد لا يجد غيرك بديلا عنه فتسحقه الحياة بكل ما فيها.

-سيكون الأمر لك لو لم ينهض شقيقك من مرضه، وأحسب أن الله لن يبخل علي بذلك، لكنني لا استطيع ترك حبل الأمان لهؤلاء في الواحات، إنهم ذئاب جائعة تنتظر أن تخبو جذوة النار لينشبوا فينا أنيابهم، انظر حولك إلى الصحراء جيدا يا بني، قد أشبعتنا بما فيها من حكمة، كانت تعظ ونحن لم نكن نسمع شيئا بالمرة، ذلك الظلام الحالك الذي هبط علينا قد يصيبك بالعجب حين تنظر في الشرق أو الغرب من موقعك فترى بصيص النور يعلو أو يتوارى في خجل منك، انظر لجبالها، تعلمك أن الحياة تصعد بك وتهبط كما يصعد صدر المحتضر ويهبط ساعة الموت، لا تستوي أبدا إلا حين يلفظ أنفاسه، إنها تعلمك ما لم يعلمك إياه أحد.

-لقد ولت أيام الصحراء يا أبي، اليوم يوم الحضر، وساكن الصحراء لا يعرف كيف يخدع الناس، إنما هو مثلها تماما، قاس غليظ القلب، تسرق الثعالب أوعيته إن غفل عنها وتلتهم الذئاب خرافه إن لم يكن لديه كلب.

-بل يدرك ساكن الصحراء كل شيء، لكنه كالناقة يعرف الصبر جيدا ويتقن ممارسته، يصبر على اللؤم كما تصبر الناقة على العطش، ويبلغ سعيه منتهاه ويصل إليه ولو متأخرا على نقيض غيره، صحيح أنه يفقد خرافه لكنه يعلم أن الذئب الجائع سيعود فينتقم منه شر انتقام.

-لو أنه احتفى بالكلب في البداية ولقنه ما يتوجب فعله لما انتظر الذئب لينتقم، وما كان له أن يرى الذئب إلا ميتا.

نظر إليه سليمان ثم ابتسم قائلا " أنت ابن أبيك "، تعجب عبد الصمد من القول لكنه لم يشأ أن يعلق على قول سليمان بكلمة واحدة.

وفي الصباح وصل الركب إلى الواحات البحرية ووصلت معه روح جيلاني إلى عنان السماء، العويل والصراخ لا حد له، القصر كلها في مأتم كبير، والجميع يتشح بالسواد والألم، العدل غير مكتوب له أن يبقى في المكان مهما جرى.

في صبيحة اليوم نفسه تضع زوجة عبد الصمد مولودها الأول، كأن الموت يسلم الميلاد أو أن الحياة أشبه بسباق تتابع، واحد يسلم الآخر ثم تمضي وكأن شيئا لم يحدث مطلقا.

مضت أسابيع على موت جيلاني ..

جلس سليمان جلسته المعهودة في غرفة بيته هاجرا الديوان بعد أن عاد عمدة مرة ثانية، أصبحت العمودية بالنسبة له لعنة يخاف منحها

لأي من أولاده، يحدق من النافذة الخشبية حيث الديوان الذي لا ينفض أبدا، يقوم فيه أولاده وشيوخ البلد بأعمال الناس، بينما ينزل هو بين حين وآخر ليتابع معهم سير الحدث.

تلج عليه في خلوته حيث أمر زوجة جيلاني، تنظر إلى عينيه ولا تستطيع أن تواري خوفها الممزوج بالقهر على زوجها الذي رحل، لم يكن لها أن تعترض وهي أقل أقرانها من زوجات أولاد العمدة مالا، قد قرر العمدة أن يقاسمها الإرث من جيلاني، هذا شرع الله رغم أنه لا يحتاج للمال، لكنه لا يترك شيئا لأحد، ثم استوصى بالأولاد فجعلها لا تستطيع زيارتهم أو إبقاء أي منهم في بيتها.

ظل الصمت يسود بينهما وكل منهما ينظر لصاحبه حتى شقت هي الصمت قائلة

-يا عمدة.. أفتقد عيالي، أشعر أنني استمع بكاء كل منهم على حدة في برد الليل، ضمهم لي فيؤنسون وحدتي، فليس على الابن أحن من قلب أمه قلب.

-أترين في قسوة فلا أحنو على أحفادي، البنت هي لكِ لا أريدها في بيتي، أما الأولاد فهم أولاد العمدة جيلاني ابن العمدة سليمان.

-حسنا ما بال البيت قد قسمته، أليسوا أولاد جيلاني، أنت لا حاجة لك بالمال، زادك الله منه أما أنا ففي حاجة له.. ليس لي بل من أجلهم.

-وفيما يحتاجون المال ؟ أنا أوفر لهم كل شيء، إنما هي حاجتك أنتِ، تصمينها في الصغار فتبدين في براءة منها وتطلقين اللوم عليهم

-أنا ألوم عيالي ؟

-هذا شرع الله.. السدس لأب مات ولده، وما سليمان بمن يبدل قول ربه أبدا، وكيف لي أن أضمن أنك لا تتزوجين صبيا يقف في دار ولدي مقامه، يدنس ما وصل إليه ويقسو على أولادي، لا.. واغربي يا امرأة من هذا البيت لا تدخلينه بغير إذني.

خرجت زوجة جيلاني وهي تحمل الألم كله في طيات قلبها، تكتمه.. تخاف أن يعرف سليمان ما في قلبها فيقتلعه من مكانه، لم يستطع والدها رغم وساطة القوم كلهم أن يثني سليمان عما عزم، ومن هذا الذي يقدر أن يثني سليمان عن قوله أو أن يعدل عليه رأيه، سليمان لا يملك أحدهم أمامه غير السمع والطاعة أو الخروج من الواحات بأسرها تاركا له ملكه وذراريه يتحكم فيهم كيف شاء.

ثم مرت سنوات ثلاث ...

لم يعد فيها سليمان يستطيع الحركة في الآونة الأخيرة بالقوة نفسها التي كان يتمتع بها في البداية، الشيخوخة هي الشعور الأثقل على وجه الأرض، حين تبصر أيام مجدك وسطوتك، جبروتك الذي رحل عنك وتركك وحيدا تجابه مصيرا معروفا لك وكنت تخافه، النهاية التي

كنت تعرفها تجد نفسك تركض إليها بغير مفر ولا ملجأ لك، ولقد علق على سقف سريره حب الا وكان يحمل عكازه أينما رحل، يستند إلى الحبال في الصباح حين يعتدل من الرقاد كي لا يسأل أي من الخدم أو الحاضرين العون، العون عند سليمان مذلة.

يستيقظ مع سطوع الشمس، ثم يبصر من النافذة المطلة ناحية الشروق، يتحرك إلى الحمام حيث جهز له الخدم الماء الساخن والحجر الأسود إلى جواره، يبدأ في سكب الماء على صدره وذراعيه، ثم يحك كعبيه بالحجر جيدا، يخرج ثم يعطر جسده من زجاجة المسك التي تأتيه من القاهرة، ثم يرتدي جلبابه ويجلس قبالة النافذة الثانية يتطلع إلى الديوان الذي كان متخما بالرجال وقت كان يحكمهم، يتذكر مجده وكيف كانت الواحة تهتز له، يدخل في نوبة سعال شديدة حتى تأتيه الخادمة وقد خافت أن تضع يدها على ظهره فيزيده ذلك حنقا وغضبا، أي شعور بالإشفاق أو الحزن تجاهه كان يقتله.

يشير إلى تلك الزهور التي تهتم لها زوجته في الشرفة المطلة على ساحة أبوشتي معللا أنها الشيء الأخضر الوحيد الذي يجلب الهواء للغرفة، وأنه لا يجب إزالة الزهور لأن يمن تحبها وتحب رؤيتها في الصباح، إن العجز ذكره بالحب بعد سنوات طويلة كاد ينسى فيها بشريته، ينسى أن له قلب كسائر البشر، وأنه مهما تقدم العمر فإن الرجال لا يستطيعون نسيان الحب الأول الذي صعد إلى قلوبهم مهما

عبر عليه الزمن، وتهاوت على القلب سنوات العمر كلها.

يخرج في الصباح في مرتديا العباءة السوداء والعمامة فوق رأسه، قد تهدل شاربيه بفعل الزمن واشتعل رأسه شيبا فما عاد فيه شعرة واحدة سوداء، وقد انزاحت عن مقدمة رأسه صلعة لامعة لا تنكشف إلا حين يرفع عن رأسه العمامة، انحنى ظهره قليلا، وقد أمر العمدة عبد الصمد أحد الخفر أن يتجول معه خشية أن يصاب بمكروه، وتجنبا لويلات الصداع الذي يجلبه حديث أمه التي ما عادت تسيطر على فعال سليمان الأخيرة، كما نبه على الخفير أن يتوخى الحذر في حديثه وقوله إلى العمدة السابق المعتزل برغبته الحرة كرسيه، إن في العزلة ألم لا يفهمه، هو فقط يعرف الشعور المقيت الذي ينتاب المرء حين يصل إلى تلك المرحلة من العمر، صحيح أنه لم يجرب الأمر بعد لكنه يخافه بجنون، وقد ظل الأب كعادة كل صباح يتحرك نحو المنطقة الغربية في المفتلا، والطريق يغرقه الوحل جراء الأمطار.

وقف بحصانه أمام بيت الدورية الذي بناه في هذه المنطقة شبه المهجورة، حيث لازالت تقام مسابقات الخيل بين الشباب في الواحة، وعلى يمينه تبدو أطلال معبد قديم متهالك عليه رسوم فرعونية، بات يبصر خلفه ناحية المعبد وأمامه ناحية البئر والماء الذي يجري من تحته ثم عبرت بين لحيته دمعة ساخنة، حتى أن الخادم توجس خيفة أن يسأله عن السبب إلا أن سليمان لم يمهله البتة ففتح معه مجال

الحديث قائلا

-هو عبء ثقيل ومجهد أن تجد نفسك بعد كل هذا العمر ثقيلا على من حولك، يخافون عليك أن تظل وحيدا تماما، كما لو أنك لازلت في المهد ولست كهلا في أواخر العمر، وبعد أن كان الكل يعول عليك في شتى أمورهم، أصبحوا يرونك حطاما ويتمنون لك الموت ألف مرة ربما أكثر مما تتمناه لنفسك فقط لأن عمرك قد تجاوز الحد الذي يعفيك من قوتك.

-أطال الله عمرك يا عمدة.. لا تقل مثل هذا الكلام.

-(يبتسم سليمان) الأعمار محسوبة، لا إطالة فيها ولا قصر، إنما هي دعوات لا نحصل منها إلا على نفاق أردناه، أو أمنية نعرف أنها لا تتحقق، والموت هو الحقيقة الوحيدة التي ننكرها، أتعرف ؟ لقد كنت أخاف أيامي الأخيرة حتى بعد أن دانت لي الواحة كلها، كنت أعرف أن هناك من الناس من ظلمتهم، وهناك من هو موتور من سليمان، لكنني أيضا كنت أثق أنه لا أحد منهم يستطيع المساس بي.

-وحتى الآن يا عمدة.. لا أحد يجرؤ على المساس بك في وجودنا، من يجرؤ أن يرفع صوته في وجود العمدة سليمان، حتى المجانين.. تعود عقولهم حين يمثلون أمام العمدة.

-بل لخوفهم من العمدة.. إنها لذة طاغية أن تحكم، وكارثة كبيرة أن

يحاكمك الزمن بعدها أو يحاكمك الناس، أو حتى حين تحاكم نفسك فتجد أنك مدان، للأمر في أوله لذة وفي نهايته يتجلى لك كل الألم.. خذني إلى البيت فما عدت أطيق البقاء.

يتحرك الخادم مع العمدة إلى البيت، وقد صار ذهن الخادم مشغولا بالفترة التي سيقضيها مع عجوز خرف، فقد كل حبال الملك التي كانت تحمله لسنين طوال على عاتقها، بينما شغلت سليمان أفكار أخرى تخص عبد الصمد، ولم يكن عبد الصمد بالذي يكترث لأبيه بقدر ما اكترث بالواحة وما فيها، الأمور تتغير وقد فتحت القاهرة الأبواب على مصرعيها للزائرين منها والمهاجرين من الواحات إليها، ولم تعد سلطة العمدة قوية كذي قبل بعد بزوغ نجم المأمور الجديد وقسم الشرطة الذي بني بسواعد أهل المدينة سخرة وكرها، كل شيء يتغير في الواحات كلها من الحيز إلى شرقيها في الحارة.

أشرق الصباح نديا على الجميع، لكنه لم يشرق على سليمان مثلهم، قضى سليمان نحبه صامتا في سريره، مسلما روحه لبارئها، يرتفع الصراخ في قصر العمدة، كان أول الواصلين سعد وعبد الصمد، وقد استدعى الأخير النجار لكي يصنع للعمدة التابوت الذي يليق به قبل الدفن، جاء المغسلون وتم فرش الحصر المصنوعة من سعف النخيل في الساحة الأمامية لأبوشتي، ثم انطلق المنادون في المساجد يتصايحون بأصوات جهورية " لا إله إلا الله.. توفي إلى رحمة الله

العمدة سليمان " .

وبدأ الناس يهلون على الساحة من كل شق في الواحات، منهم من يبكي بحرقة، ومنهم من يخاف أن يبدي شماتته، منهم من لا يصدق أن العمدة سليمان يموت، أهكذا ينتهي هذا الجبار؟ ألم يكن ملاك الموت قد نسيه؟ أعاد ليذكر صديقا قديما في تلك اللحظة، ثم وصل المأمور على حصانه في نهاية الأمر من الباويطي محاطا بخفر قسم الشرطة، مال المأمور على عبد الصمد مستنكرا خروج العمدة من البيت إلى مدفنه في تابوت خشبي

-أليس حريا أيها العمدة أن يخرج كما الموتى؟ لم التعاظم والتكبر على الناس فكلنا سواسية وكلنا في القبر واحد

-ليس الأمر كما تظن يا حضرة المأمور.. الميت ليس شخصا عاديا، إنه العمدة سليمان الزينبي، عمدة القصر وسيدها وكبيرها، كيف له أن يخرج من بيته كما يخرج الرجل العادي؟ وما الذي يميز العمدة عن غيره إلا هذا.

ران على مأمور القسم الصمت ريثما أخرجت الجثة من الغرفة بعد الغسل، مزفوفة بوابل من العويل والصراخ، يحملها الرجال على أعناقهم من ساحة أبوشتي إلى المقابر التي تعلو التل المجاور لعين شاور مباشرة ناحية الغرب، كانت الجنازة مهيبة بما تحمل الكلمة من معنى، يسير فيها النعش في المقدمة وعلى يساره يمشي العمدة

عبد الصمد وسعد شقيقه وأحد شيوخ البلد، وعلى يساره يمشي مأمور القسم، والرجال يتبعون الجنازة وكأنهم جنود يتبعون قائدهم في معركة حربية مخيرين أو مسيرين لا فرق، حتى فرغ الناس من الدفن وعادوا إلى ساحة أبوشتي مرة ثانية.

مضى سليمان إلى الأبد وتسلم عبد الصمد المقاليد كافة في القرية ولم يعد هناك من كلمة تسمع بعد كلمته إلا أن الأيام تمضي وتضع امرأتان مولوديهما في القرية، زوجة سعد وزوجة عبد الصمد، كان المواليد هم مصطفى بن سعد – جد عبد الله – و أحمد بن عبد الصمد، هو حق أن كل موت يسلم حياة جديدة، وأن الأمر يشبه سباق التتابع ما أن يمضي أحدهم حتى يعود الثاني بسيرة جديدة.

obeikan.com

الفصل التاسع

الواحات البحرية – الباويطي – شارع الجمعية ٢٠١٤م

يصلان إلى شارع الجمعية، أكثر شوارع الواحات والباويطي ازدحاما، يعد الشارع التجاري فيها، في نهايته من منطقة الأرصاد – قديما – تجد محطة السيارات الخاصة والميكروباصات التي ترحل إلى القاهرة قبل أن ينتقل مكانها إلى شمالي المدافن الجديدة للباويطي، وأيضا في منطقة الأرصاد تحط رحال أولئك الذين يتجهون إلى سيوة أو الوادي الجديد وواحة الفرافرة، يختار عبد الله وحسام هذه المرة السير على قدميهما ليكونا أقرب إلى الحدث، ذلك المقهى الذي يجتمع عليه العمال الذين يأتون من الصعيد والفيوم للعمل بالأجرة في الواحات البحرية والتي ارتفعت في السنوات العشر الأخيرة لسبعة أضعاف، وعلى يمين المقهى تبدو الجمعية، ذلك المكان الاشتراكي الوحيد المتبقي في الواحات يدل على الحقبة القديمة، له سيرة وباع طويل، دلفا إليها لعلهما يطلعان على الناس بالداخل، على كل منفذ منها يقف جمع من الناس، طابور لأسطوانات الغاز، طابور ثان للدقيق وآخر

للسلع الاستهلاكية، وجمع أقل من صاحبيه بجوار موزع الكيماويات التي يستخدمونها في الزراعة، يرتفع الضحك تارة والضجيج تارة أخرى، ويرتفع في رأس عبد الله مع كل هذا طنين الذكريات السعيدة والمؤلمة، يخرج منها ويتحرك ناحية الشرق قليلا على بداية الشارع، حيث يقع مسجد الرحمن المسجد الأكبر بالباويطي، يمضيان قدما دون أن يلتفتا وهما محاطان ببائعي الدجاج والبرسيم والخضروات، حتى يقفا قبالة المحكمة الجديدة التي نقلت من بيت في شرق الباويطي إلى هذا المكان، في المنتصف تقريبا، يستمران في سيرهما إلى قسم الشرطة، ثم الإدارة التعليمية والثكنات الخاصة بقوات حرس الحدود حتى يصلا إلى قصر الثقافة الموجود بالباويطي، ينحرفان يسارا إلى طريق منخفض ويظلا في سيرهما بينما يلتفت حسام حوله على غير هدى حتى يصلا للبيت المنشود، يفتح عبد الله الباب ويهبط الدرج ويمضي في الساحة الأمامية للبيت حتى يصل إلى باب خشبي مرتفع، وقبل الطرق يفتح الباب على حين غرة فيطل رجل في أواخر الخمسينيات من عمره مبتسما له قائلا

-لقد عرفت بالأمس فقط أنك وصلت، وكنت سأغضب كثيرا لو لم أرك.

-ما كنت لاستطيع عدم الحضور

-لا تكن محتالا ما جئت إلا لتعين صديقك في بحثه

احتضنه الرجل ثم أشار إليهما بالدخول ريثما يقوم ببعض الأغراض بالمنزل، دلفا إلى الداخل، إنها الرائحة نفسها التي كان عبد الله يشتاق إليها ويشمها في كل مرة يلج إلى هذه الدار، مع والده أو بمفرده، هنا كان يشعر أيضا بالأمان، يقف في الصالة ثم ينظر للصورة المعلقة في إطار خشبي لامع باللونين الأبيض والأسود، الدكتور محمد المصري، ثم يبتسم لانهمار مسلسل الذكريات التي لا تبرح رأسه في كل خطوة يتحرك فيها.

تعود ملكية المنزل إلى عمة والده هدى عبد الوهاب الحجار، ابتاعه زوجها الطبيب محمد المصري إثر اختياره الاستقرار لفترة ما في الواحات البحرية بعد زواجه بها، يذكر روحها يتمتم في سره أن طيب الله ثراها، ينظر في نهاية الصالة فيجد التلفاز القديم ذات الغلاف الأشبه بالخشب، يمد يده على الأريكة التي يجلس فوقها فتصطدم بأحد المراجع الإنجليزية المرتبطة بالعلوم الزراعية، حتى يلج ساكن المكان ليرحب به

-كيف الحال يا عم طاهر؟

-كيف الحال يا ولد؟ هكذا إذن تقرر العودة أخيرا

-ليست عودة بالمعنى الطبيعي.. هي زيارة خاطفة لمساعدة حسام كما أخبرتك قبل الزيارة وريثما ينتهي من بحثه في أيام قليلة سأعود

ثانية إلى بريطانيا

-ولماذا بريطانيا ثانية ألم ننته بعد من هذه القصة؟

-ليس الأمر في القصة نفسها يا عم طاهر؟ المسألة أنني لم أجد شيئا هنا غير الوجع، إنني أغالب النفس على ما فيها من ألم، وليس في البلد من جديد، الناس على حالهم ينسون كل شيء، لقد زرت أغلب الأماكن التي كنت أتردد عليها في الماضي أثناء الزيارات القديمة، كل شيء يتغير تدريجيا، ما جاء بي إلا الماضي، وما أجبرني على الرحيل إلا تلك الذكريات التي فقدتها وفقدت هي أيضا معناها في المكان، ربما أجبرني حسام على تذكر ما كدت أن أنساه، لكن الوقت لم يكن ملائما بالمرة.

-الماضي لا يعود، هكذا خلق يا بني.. لنتذكره، أم فكرة أن تعيش في الماضي تشبه فكرة دفن النعامة رأسها في التراب كي لا ترى ما يقف أمامها من حاضر، أنا أفهم ما تقصده تماما، كانت عيشتي مثل عيشتك بالضبط بين مكوث أبي وأمي في القاهرة والواحات، لكن ما أقصده أن تتأقلم على الوضع لا أن ترفضه.. ماذا توقعت أن تجد هنا؟ أمي فاتحة ذراعيها لك تستقبلك؟ أم جدك وأنت تركب في الصندوق الخلفي لسيارته وهو يسير بك بين الحقول ؟

-كنت أتوقع ألا تتغير الأشياء إلى هذا الحد.. وفي كل مرة يخيب توقعي

كالعادة ولا يحدث أي جديد.

-الحياة أشبه بالقطار، لها محطات عدة.. هل سمعت عن قطار يعود بظهره للمحطة السابقة، حين تنزل من القطار لن تجد من يقلك للمحطة التي تليها فيفوتك الموعد وتظل في مكانك لا تبرح الأرض.

يبقى الجميع على صمت بينما ينفث طاهر سجائره وهم يحتسون القهوة التي أعدها، كانت هي الألذ لعبد الله في كل زياراته التي يحضر فيها إلى منزل طاهر بالواحات في الوقت الذي يجده فيه.

ينقطع الحديث بينهما حين يسأل طاهر عما يود حسام أن يعرفه من معلومات أو من تاريخ غير مكتوب عن الواحات البحرية، إلا أن الجميع قد راق له أن يتحدث عن والده الدكتور محمد المصري، هو غريب عن الواحات إلا أن تاريخه مرتبط بها ومرتبط أيضا بأسرة عبد الله التي ود بشدة في هذه الآونة أن يبحث عن أصولها وأن يتعمق فيها.

قد أخبرهم أن ما يعرفه يبدأ مع بداية العام ١٩٤٦م في الباويطي ..

أمست الوحدة الصحية فارغة إلا من الدكتور عزيز بعد رحيل كل الأطباء الذين أقاموا في الفترة الماضية في الواحات البحرية، كان يمضي الفترة الصباحية في العيادة جالسا مع المرضى حتى التوقيت الذي يرفع فيه الأذان بصلاة العصر، ينظر في ساعته الفضية ثم يتحرك إلى المجلس المقام بجوار مسجد الباويطي أمام عين الصلاة،

كان ينتظر خارج المسجد احتراما للناس وتقديرا لأنهم سيرفضون – رغم محبتهم له – أن يخطو بقدميه إلى بقعة طاهرة وهو غير مسلم بالمرة.

في هذه الفترة من اليوم تعود الفتيات اللواتي يحملن الماء على رؤوسهن من عين الصلاة إلى البيوت القريبة المجاورة للعين، هو موسم للعرض والزواج، تحمل الفتاة منهن وعاء الماء بميل لكي يفيض منه جزء على ثيابهن، فيلتصق الثوب بالجسد وكأن الأمر لا يحدث طواعية، فينكشف الجسد تحت الأردية للراغبين بالزواج من الشبان أو بمن يمر في الطرقات من النساء، وبين كل هذا كانت عين الدكتور عزيز ترصد من النساء واحدة بعينها.

في بداية الجلسة لم يخرج من المسجد إلى حيث يجلس الدكتور عزيز سوى غانم عبد المتجلي، جلس أمام النار المشعلة ثم وضع فوقها إناء الشاي وظل يرقب غليانه بينما لم يلحظ ذلك الغليان الذي يطمر الدكتور عزيز بالمرة، في البداية ساد الصمت بينهما حتى قطع ذلك السيل من السكوت قول غانم

-أين ذهبت يا دكتور.. أسيوط ؟

-ليس الأمر كما تظن يا حاج غانم إنما أود أن أفضي لك بحديث ولكنني أخاف أن تسيء فهمي فيه

-خير يا دكتور أنت ابني تكلم ؟

-إنني راغب في الزواج

-(مقهقها) وهل في الزواج عيب يا ولدي؟ الزواج يا ولدي سنة الحياة والشر الذي لا بد منه.. لكن ما الذي يمنعك من الزواج ؟ هل اختارت لك السيدة الوالدة عروسا من أسيوط؟

-لا العروس من هنا

اعتدل غانم عبد المتجلي في جلسته وقد بدا عليه وجه صارم وهو يحدق في عزيز قائلا بهدوء

-عروس من أهل البلد؟ أأنت جاد ؟

-نعم وهل هناك مزاح في مثل هذه الأمور ؟

-ومن التي وقعت عينك عليها ؟ بنت من في البلد ؟

أشار عزيز إلى واحدة من الفتيات اللواتي يقفن على حافة العين وهي تحمل فوق رأسها قارورة الماء وتتجه بمفردها إلى الطريق المجاور باتجاه البشمو، حينها حدق فيها غانم جيدا ثم تابع القول

- هي هدى بنت عبد الوهاب الحجار، الرجل الذي يجلس معنا في بعض الأوقات هنا، بنت أصل وبنت عز، لكن الربط بينكما محال ومحرم في ديننا، وأبوها رجل شديد الالتزام، حافظ لكتاب الله عز

obeikan.com

وجل، يا بني نحن نحبك لكن ليس الأمر على ديننا، فنحن بلد واحد، والعار إذا ما مس بيت من بيوتنا لزمه أمد الدهر حتى يموت كل الناس في الواحات أو يموت كل ساكني البيت أو يرحلوا جميعا إلى أرض أخرى حيث لا يعرفهم فيها أحد ولا هم يعرفون أهلها، الناس في أرضنا لا تنسى العيب وإن نسيت الحسن وفضل الأخلاق البارز من غيرهم، على هذه الفطرة وجدنا أنفسنا ولا نستطيع مهما تقدم بنا الزمن ومهما تغيرنا أن نبدل في ذلك أو أن نغيره.

عاد الصمت ليسود بينهما في خروج الناس من المسجد نحو الجلسة بينما باتت عيني عزيز تتابع عبد الوهاب الذي خرج من المنزل بهدوء يضع قبقابه على الأرض ثم يسير إلى جنوب المسجد ناحية بيته.

وحين جن الليل لم يكن له أن يظل ساكنا، افترش رقعة الشطرنج أمامه وهو يجلس قبالة النافذة، القمر كان في ليلة التمام، تنعكس أشعته على رقعة الشطرنج فتزيدها بريقا ولمعانا وكأنها لوحة مرسومة بريشة فنان محترف، على يمين سريره تراصت الكتب التي اصطحبها من القاهرة، في الطب، في الأدب والفنون العالمية، كانت القراءة هي السلوى الثانية التي يتمتع بها في هذه البلد النائية بعد جلسات العصر التي كان يجالس فيها سكان الباويطي، لم يكن يعرف وهو المتذمر من قرار انتدابه للواحات البحرية أن المقام سيطيب له على هذا النحو، وما كان يرجو شيئا على الإطلاق إلا أن تكون هدى بجانبه في هذه

الليلة.

يظنوه مسيحي، هو نشأ فوجد نفسه هكذا، لم يختر أي من الناس دينه ولم يكن لأحد حرية القرار بعد أن ولد، هدى حين ولدت كانت لأب وأم يدينان بالإسلام، لم يكن لها أن تختار، ولم يكن له بدوره.. ضم قبضته ثم لكم حافة النافذة بقوة وبات يحدث نفسه كمن أصيب بالجنون

" ماذا أفعل؟ لم أكن أظن وأنا الذي رأيت ما رأيت أن ينتهي الأمر بي هنا.. صدق القول أن الحب أعمى، لكنه ما ينبغي أن يكون بهذا العمى وتلك الاستحالة، الفارق بيني وبينها كبير وأنا جد متعب، وليس لي في هذا الأمر اختيار، إنه قلبي اللعين يوردني موارد الهلاك ويذيقني شيء من العذاب الذي يروق له وتؤرق له روحي، كيف استطيع أن اعبر لها عن ذلك، وكيف له أو لأبيها أن يقبل بديانة أخرى غير الدين الذي أوجدوه لأنفسهم، هل الدين ضرورة إلى هذا الحد، حديث غانم إليّ يفيد أنه لا رفض لي إلا هذا العار، العار ليس في الدين، إنه في الشذوذ عن القاعدة، لكنني سأحسم الأمر في الغد وليكن ما يكون "

في عصر اليوم الثاني كان عزيز منتظرا على أحر من الجمر خروج غانم عبد المتجلي من المسجد، لكن غانم لم يخرج إلا ومعه رهط من أهل المدينة يحيطون به، وكالعادة يخرج عبد الوهاب وحيدا، يرمي قبقابه ويذهب إلى بيته، سار عزيز حينها نحو غانم وطلب منه الحديث لأمر جلل على انفراد، فانعزل غانم عن الجمع وقد اعتلاه القلق مما

رأى في عيني عزيز من أمر جلل، وما أن ابتعدا حتى تفوه عزيز وجسده يكاد أن يسقط من فرط الارتجاف

-إذا فالرفض من عبد الوهاب ليس لشخصي لكنه لديني فقط ولخوفه أن يلحق العار بأهله

-أما زلت تفكر في الأمر يا دكتور؟ نعم هو كذلك.

-أفئن غيرت ديني سيغير هو رأيه؟

-ماذا قلت.. تسلم ؟

-لقد كنت واضحا وصريحا.. لئن فعلت ما يريد أيوافق هو على هذا الزواج؟

-بلى يوافق

-اتبعه إذن وسله إن كان يرضى بي زوجا لابنته

بين المفاجأة والدهشة ركض غانم عبد المتجلي والناس ينظرون إليه بقلق وعجب إذ يركض في الشوارع كطفل في بدايات عمره وليس كرجل يبلغ من الكبر عتيا حتى لحق بعبد الوهاب على باب البيت فأوقفه

-عبد الوهاب.. أريد أن أتحدث إليك في أمر ما

-خير إن شاء الله.. تفضل

دلف الرجلان إلى بيت عبد الوهاب وقد نادى الأخير على آل بيته

obeikan.com

ليحضروا الشاي للضيف ريثما يدري ما خبر الزيارة العاجلة، وفي هذا الوقت كان غانم يلتقط أنفاسه ويجهز القول لعبد الوهاب، وحين جاء الأخير من الداخل حاملا الشاي والماء شرع غانم عبد المتجلي في الكلام

-منذ عودتك من الفيوم وما عهدناك إلا حافظا لكتاب الله، مقيما لسنته، مؤديا لفرائضه، وما توسمنا الخير في أحد إلا كما توسمناه فيك وإني آتيك بطلب ما رجوت أن ترفضه أو تعيدني خائب السعي، وقد كنت صديقا حميما لشقيقك عبد الله قبل موته وما كان لأحد أن يحمل سر شقيقك كما فعلت أنا

-خير إن شاء الله.. ليتني مثلما قلت وأرجو أن تكون حاجتك عندي فألبيها

-هي ليست حاجتي، إنما أنا وسيط ورسول، وإنما بغيتي أن تؤجر أنت الأجرين، أجر جواز وأجر هداية

-أقلقني قولك ماذا ورائك ؟

-شاب يرغب في الزواج من هدى ولا يرغب أن تتم الزيجة إلا برضاك

-(ضاحكا) ظننته أمر جلل، إن هي رضيت قل له زوجناك.. ابن من هو؟

-وهنا مربط الفرس، هو ليس من البلد، إنما هو غريب مقيم بها وقد

أبصر هدى في جلساتنا عند عين الصلاة وشاء أن أحدثك برغبته

-أقلقتني يا رجل.. من هو؟

-عزيز.. الدكتور عزيز

ينهض عبد الوهاب من مقامه مذهولا وهو ينظر إلى غانم عبد المتجلي قائلا :

-أتزوجه أنت ابنتك إن هو تقدم لها ؟ أتظن ابن الحجار يرضى السوء في أهله؟

-ومن قال لك إنه سوء.. الرجل على استعداد لفعل أي شيء

-ولو فعل كل شيء ليس لي بعد كل هذا العمر أن اقدم على فعل الحرام أو أن ألحق بابنتي الصغرى العار فقط لأن هذا ما ترتئيه أنت

-ولو أخبرتك أن الرجل سيسلم لهذا الأمر ؟

ساد الصمت قليلا وشرد ذهن عبد الوهاب في العبارة الأخيرة التي تلفظ بها ثم تابع بعدها قائلا

-وما يدريك ألا يكون إسلامه صوريا كما حدث منذ مائة وخمسين سنة في القاهرة حين تزوجت امرأة بضابط الفرنسيس الذي أسلم كذبا ليحظى بها؟

-لأن الزمن تغير، ولا شيء يجبره على ذلك يا صديقي، اجعل إسلامه

على يديك وليكن لك أجر الإسلام وأجر الزواج

-دعني أفكر في الأمر ولأجيبنك الليلة على ذلك

-وأنا في انتظارك

خرج غانم عبد المتجلي من بيت عبد الوهاب إلى مسجد الباويطي حيث ينتظر عزيز على أحر من الجمر أخبره بكل ما دار وأن الليلة يحسم الأمر ولينتظره في المشفى في المساء ليأتيه بالخبر اليقين، وعندما جن الليل لم يأت شيء بالمرة.

إلا أن عزيز لم يبت ليلته هانئا مطمئن القلب، لقد أضرمت نيران الشوق في كل شيء تقريبا، وأحرقت في القلوب الأخضر واليابس، وحركت في صدر الشاب ذكريات سيئة كان يموج بها، عن تلك الاختلاسات والخطايا التي كان يرتكبها تحت عباءة براءة الطفولة. لا كنيسة هنا، أكان الرب غافلا عن هذه المنطقة النائية؟ لا يسمع الجرس ولا وعظ القساوسة الذي لم يعبأ له من قبل، ولا تلك الغنجاء التي أرادتها أمه له، ما كان الرب ليرى في الحب خطيئة، إنه يقول " أحبوا أعدائكم " ما بالك يا فتى بمن ليسوا أعدائكم؟ كيف يقولون عن الرب كل هذا الكلام؟ إن الرب لا يكره الحب ولا يمقته؟ إنه يأمر بالحب في كل شيء وما كان الحب إلا وليد الحياة، وما كان الحب إلا أول من أخرج الناس من حمى الرب إلى نزوع الشيطان وإلى ظلاله، وما أعادهم إلى حظيرة الرب إلا الحب.

أليست الخطيئة الأولى التي تسببت في النزول إلى الأرض ناجمة عن الحب؟ نعم إنها تلك الثمرة الخبيثة التي أغوت حواء آدم ليأكل منها. أليس دعاء آدم كما في دين أهل هذا المكان المفقر هو السبيل لنجاته من براثن غضب الرب؟ إن الحب يتجسد في هذه المرأة بكل صوره وأشكاله ومناظره، الحب يجمع بينهم لكن الدين هو الفارق وهو الحاسم والحازم، ربما لم تكن هذه الفتاة وهي تحمل الدلو لتعره أو تعطف عليه بأي نظرة منها ترضيه، إن الحب هو أكثر الأمور تعقيدا في الحياة، وأكثرها تساهلا وتصالحا مع النفس، يفشل الناس في تعريفه مهما حاولوا، فهو يتلون كحرباء تقف على غصن الشجرة مرة وفي الرمل مرة ثانية.

بات عزيز مهموما وفي شدة الألم، لم تكن الليلة تمضي إلا على مهل، وحين نال منه اليأس جهز رحاله وأعد كل شيء، لقد جن الصباح ولم يأته نبأ غانم أو غانم نفسه كما وعد، حينها قرر أن يرحل من الواحات بأسرها في هذا الصباح وألا يعود ثانية إليها وليكن الأمر في طي النسيان، لكن قلبه كاد أن يجن حين سمع طرقا على الباب وما أن فتح الباب حتى صعقته المفاجأة، لقد كان غانم عبد المتجلي على الباب بصحبة عبد الوهاب والد هدى يستأذنان الدخول، لم يكن يعرف ماذا يفعل من فرط المفاجأة التي أطبقت على شفتيه ومنعته من الكلام مطلقا، أشار للرجلين بالدخول ثم شق غانم جدار الصمت بين الجميع

قائلا

-لقد وافق الحاج عبد الوهاب على هذه الزيجة يا دكتور، مبروك.. لكن دعني أختر لك اسما مسلما.. دكتور محمد.. أظنه مناسب جدا.

obeikan.com

الفصل العاشر

الواحات البحرية – جبل الإنجليز ٢٠١٤م

خرجا من الشارع حيث وتحركا ناحية الشرق حتى وصلا لبوابة المدينة، الخروج يقبض قلب عبد الله، يذكره في الصبا بالخروج نفسه حين تنتهي العطلة ويعودون أدراجهم إلى صقيع برمنجهام مرة ثانية. يصلا إلى جبل الإنجليز والذي يطل على قرية العجوز ويفصل بين الباويطي ومنديشة، يبصرا المبنى الحجري المقام وهو الشاهد الأخير على وجود آخر فرقة إنجليزية بالواحات البحرية وجدت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

يتطلعان إلى الأمام ناحية الطريق الإسفلتي الصحراء واسعة، هادئة وصامتة، والريح لا تحرك فيها سواكنها، على يمينهما حيث يبدو جليا لهما جبلي الدست والمغرفة، هناك حيث عثر على أكبر ديناصورات العالم حجما في عام ١٩٠٦م، حينها كانت المعلومة صادمة لحسام الذي علق على الأمر قائلا :

obeikan.com

-هل تقصد أن حفريات أكبر ديناصورات العالم حجما جاءت من هناك؟

-نعم لقد كان الأمر معروفا وقتها وقد جاءت وسائل الإعلام للتصوير، حتى أن البرنامج الشهير سري للغاية قد صور المكان في إطار إحدى حلقاته عن تجارة الآثار والتحف الفنية وتهريبها من مصر مجانا أو بثمن بخس.

-يا الله.. لا تخبرني أن كل هذه الدلائل قد طمست؟

-ليتها بالفعل طمست، لقد اكتشف المكان للمرة الأولى عام ١٩٠٦م، ونقلت عظامه بعدها إلى حيث بلد المكتشف في ألمانيا إلى أن تدهور الوضع في الحرب العالمية الثانية وقصف المتحف الذي ضم رفات الديناصور لتتفرق الأجزاء الباقية إلى أماكن غير معلومة، وفي ٢٠٠١م تأتي مجموعة من العلماء بإحدى الجامعات الأمريكية وتأخذ معها ما تبقى من حفريات هذا الديناصور إلى هناك.

-لا تخبرني أنهم مروا بالحفريات من مطار القاهرة بسلام؟

-للأسف ذلك ما حدث، وقد كثرت الأقاويل في هذا الأمر، منها ما يقول أن رجال المطار لم يتعاملوا مع الأمر باحترافية، لأنهم صدقوا أنها عظام جمل كما أوحى العلماء، وهم يخرجون بكنوز مصر من المطار بشكل طبيعي جدا إلى بلادهم حاملين ما كان يجب علينا نحن

أن نحمله، ومنهم من يقول أنها بنود اتفاقية بيننا وبينهم، لا أحد يعرف أين الحقيقة بالتحديد.. لكن المؤكد أن تاريخنا بين أيديهم.

يجلس على النصب الحجري الذي كان في ما مضى ساترا يوضع عليه المدفع الإنجليزي الموجه ناحية الشرق للتصدي لأي محاولات للغزو، من تحتهما تبدو جلية قرية العجوز بالكامل ومن الخلف تبدو المنطقة الشرقية للباويطي، كانت نظراته حائرة بشدة بين حسام تارة وبين الأرض أسفل الجبل تارة أخرى، تتراكم الكلمات ثم تثقل كاهله فيعجز عن الحديث ويفرض الصمت حينها نفسه سيدا للموقف، يقترب منه حسام ويجلس إلى جواره وقد شرع في التدخين ثم بدأ في حديثه

-أصارحك القول يا عبد الله.. لم أكن أظن أن بقعة جرداء كهذه البقعة تستطيع أن تحمل كل هذا التاريخ بداخلها، وكل هؤلاء الناس، إنهم يعيشون في معزل عن العالم لكنهم يخلقون عالمهم الخاص، لكن لدي أشياء كثيرة لا أجد لها تبريرا أو تفسيرا، لماذا لم يكن للناس أن يثوروا على ظلم سليمان، كيف استغلهم وكيف لهم أن يكونوا بهذه السذاجة، دعك من سليمان، كيف يرحل أغلبهم عن هذه الأرض وعن هذا الجمال وعن الأمان المطلق الذي شهدته فيها طوال أيام الزيارة

-وكنت تسخر مني وتظنني فيلسوفا.. أما عن سليمان فقد استغل جهل قومه ونجح في الأمر، وأما عن سذاجتهم فلأنك قلت أننا في معزل عن العالم، وأما عن الجمال فهي ليست باريس التي تنشدها، وأخيرا لن

تستطيع أن تجد تفسيرا لكل شيء يحيط بك في الدنيا، يبدو يا صديقي أنه من الأفضل – أحيانا – أن نترك الأمور تجري كما هو مقدر لها، هي في نهاية الأمر تجري نحو هدف واحد.

-وهناك أيضا ما لست أفهمه؟ هو أنت يا صديقي.. أشعر كأنك لا تحب المكان بل إنني لا أجد مبررا واحدا غير مساعدتي هو ما جاء بك إلا هنا، كأنني كنت الذريعة المناسبة لتعود للواحات مرة، أو أنك تخفي ما لا تود لأحد معرفته؟

-دائما أنت محق يا صديقي.. إنني أغالب النفس على ما فيها ولا استطيع، إن الأمر برمته يشبه حربا كاملة، الماضي في الواحات والماضي في برمنجهام، ذكريات أزقة وطرق قديمة هنا، وصور تكاد أن تتلاشى للطرق الحجرية هناك، يدفعني شوق غريب للحانات التي هناك.. زيارتها.. التسكع إلى جوارها، لن تجد من يفرض نفسه أمامك في صورة الله، هذا حرام وهذا حلال، كأنك أجهل الناس أمام علمه أو كأنه مفوض من قبل الله ليحاسب العباد عوضا عنه، أشياء كثيرة تموج بداخلي يا حسام ولا استطيع أن انتزعها، أنا لا أقول أن المكان الذي أمضيت فيه طفولتي ومهدي هو الفردوس الذي لا عوض عنه، لكنني أحتاج حقا لقليل من الراحة.. أحتاج أن أفكر

*****

حل المساء وهما عائدين إلى بيت عبد الله في جنوب الباويطي، والصمت يلفهما فلم يحاول أي منهم كسره مطلقا، وحين وصلا وجدا عم حسن الرجل المسن جالسا أمام التلفاز يدخن نارجيلته وأمامه قليل من الجمر يستخدمه كفحم لإشعال النارجيلة وتغيير التبغ بين حين وأخر، ركز فيها حسام طويلا، لم تكن كتلك التي يبصرها في المقاهي الموجودة بالقاهرة، إنما هي تشبه العلب الزجاجية الخاصة بالعسل أو المربى، قد ملئ نصفها بالماء ثم خرجت منها عصا مجوفه يسحب منها العجوز أنفاسه، والعصا الثانية قد وضع فوق رأسها الفحم والتبغ، والتلفاز لم يكن يعرض شيئا ذات قيمة، فيلم سينمائي بالأبيض والأسود، لم يكن العم حسن من هواة الأفلام الجديدة، وفي كل مرة يعلل فعله قائلا من شب على شيء شاب عليه، في تلك الأثناء لم تعد لعبد الله أي طاقة متبقية ليستمر في السهرة معه، صعد إلى غرفته وغط في نوم عميق بينما بقي حسام بالأسفل يقاسمه دخان النارجيلة ويتسامر مع الرجل علّه يستطيع الخروج بأي شيء جديد من خلاله.

بدأ يفتح مجال الحديث مع حسن قائلا

-أخبرني يا عم حسن.. لو جعلت لك الاختيار فإلى أي زمن تختار الرجوع؟

-آآه كم هو السؤال عسير يا ولدي.. لكن لو أن الأمر بيدي لعدت طفلا صغيرا

-هل تذكر ملامح العمدة سليمان؟ أو عبد الصمد؟

-ليس كثيرا لكنني أذكر عهد العمدة عبد الصمد، فلقد عاصرت الشطر الكبير من أيامه حتى توفي وأنا في شبابي

-هل لك أن تروي لي عنه.. هذا ما جاء بي

-(يبتسم) لك ما تريد يا بني مع أن الناس لم يعد منهم من يكترث لتلك القصص والأخبار

-لقد سمعت أن الملك فاروق قد قام بزيارة الواحات في أواخر الأربعينيات

-صحيح.. كان هذا حين كنت صغيرا، ويروي الجميع تلك القصة حين جاء محملا بالمال والهدايا

-هل لك أن تذكرها لي؟ إن ما أريده من أخبار الواحات ينتهي ببداية الثورة.. هكذا أنشد.

وبدأ حسن يحكي له ما جرى في عام ١٩٤٦م وما جرى من زيارة الملك فاروق ...

الأمور أصبحت هادئة ومستقرة، لكن عبد الصمد سن في القصر سنة أبيه سليمان، جدد ديوان الحكم ليكون لائقا بمقامه، واحتجب به عن الناس فصار الديوان في قصر أبيه الذي آل إليه بالإرث، جعل كرسيه

ككرسي أبيه أعلى من الجميع في المجلس، وكانت هيبته في أي مكان يحضر فيه جد مرعبة، حين يقف عبد الصمد في أرض على الجميع أن يتجرد من هيبته كي لا تنافس هيبة العمدة.

ثم ازداد عدد الخفر الذين يمتلكهم عبد الصمد، وزاد بأسه ومع كل هذه الزيادة وظف بعض من الناس لاستخراج الماء للزرع الذي يملكه، وقد قرر بعد هذا الأمر أن يعيد قانون حق العمدة القديم والذي اسقط في عهد جيلاني، ومفاد القانون أن للعمدة حق مشاع في الماء وقطعة من الأرض إثر كل بئر يتم حفره في قرية القصر وأن من يمنع حق العمدة في هذه الأرض كمن يمنع حق الله ويخالف الشرع، وقد أيد هذا القول الشيخ عثمان شيخ المسجد قائلا أن لأولي الأمر حق مشروع ومعلوم في ما تنتج الأرض وأن هؤلاء الذين يمنعون هذا الحق أرضهم مستباحة وليس لهم أن يستجيروا بالعمدة عبد الصمد إذا ما اعتدى على أرضهم أحد، وأن لهم أن يحموا أنفسهم بأنفسهم دون الرجوع إليه لأنهم تركوا طاعته.

وزاد عبد الصمد القرار بأن له ضريبة سنوية على كل بيت، جوالين من القمح والشعير، وحصيلة من إنتاج الأرض، وبعض من أعلاف الخيول والتبن والبرسيم، وكان من الناس من يعطونه أكثر من الحق السنوي رغبة في التقرب إليه أو خوفا من أن يسلطه واشٍ عليهم، لا أحد ينسى تلك الوشاية حين أجبر العمدة أحدهم أن يبيع له فرسه بثمن زهيد،

كان ذلك لوشاية حقيرة وصلت للعمدة مفادها أن الرجل يملك حصانا أصيلا يعرف داره جيدا، مر الرجل من أمام العمدة الذي سأل الخفر عن سعر الجواد، فأجابوا بما لا يعرفوه خوفا منه، فنال الرجل نصف ثمن الحصان وولى على قدميه دون أن ينبس ببنت شفة.

ظلت الأمور على حالها حتى انتشر الخبر في الواحات البحرية أن صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك البلاد المعظم قد قرر زيارة الواحات البحرية في هذه الآونة، حينها بدأ الجميع يعد العدة لزيارة الملك فاروق، هي المرة الأولى التي يكترث فيها أحد الحكام ولن تكون الأخيرة، المأمور يكاد أن يجن وقد قرر بناء استراحة للملك.

وصل الملك فاروق إلى الواحات محملا بالهدايا والعطايا، كان يدفع للشباب مهور الزواج عالية الكلفة والتي تبلغ الواحدة فيهن ما يفوق الخمسين قرشا، وفي جولاته قام أحدهم بإطعامه من المشمش الذي تنتجه الواحات وبعض من التمر فأجزل له العطايا ومن عليه بلقب أفندي فكان هو أول من حصل على اللقب في الواحات كلها، وكان الملك بسيطا في جولاته بالواحة حتى أن بعض الناس كانوا يجهلون من هو رغم كل هيبته، وقد قرر بشأنها قرارات اصلاحية عدة سينفذها في الزيارة الثانية، لكن الوقت لم يمهله ولا الأحداث حتى قامت ثورة يوليو وأطاحت به من العرش.

في تلك الآونة كان عبد الله في الغرفة العلوية للمنزل شارد الذهن

تماما، يدخن سيجارة تلو الأخرى ولا يفكر في شيء غير الأخطاء التي اقترفاها منذ مولده، الاختيارات السيئة التي ما كان له أن يسير في دربها، تلك الفاتنة التي تعلق قلبه بها وقد ظن يومها أنه شطر من حب مراهقة سيزول بزوال الوقت، لكنه يعود إليه في أيام الوحدة فيفتك به فتكا شديدا، إنه يعرف أن الطريق إلى هذا الحب مرصود من البداية، وليس لديه بديل، لا أحد يملك دائما ما هو بديل عن الحب، لا أحد يستطيع أن يقرر متى يحب؟ أو كيف يحب؟ لحظة واحدة يخفق فيها القلب ويجد فيها الإنسان نفسه قد تحول من الطفولة إلى الشباب فالشيخوخة، ينقضي الأمر كلمح بالبصر.

لكن الغباء والحماقة التي آلمته كانت في الاستسلام، كأن التاريخ يعيد نفسه معه من جديد، حين أحب سليمان يمن لم يكن يستطيع الزواج بها تنفيذا لرغبة أبيه العمدة، لكن الأيام تمر فيجد أنها تنتظره رغم زيجته الأولى ورغم كل ما جرى، ليتها هي الأخرى تنتظره.

يقوم من مضجعه بعد زوال النوم الذي لم يأته بالأساس ليهبط إلى الأسفل حيث يجلس حسن وحسام يتسامران في كل ما جرى في العقود القديمة، لعله يجد بينهم السلوى التي ينشدها، تلتقط أذنه أسماء كثيرة منها جده عبد الصمد وجده سليمان والملك فاروق، يظهر أمامهما ويهبط الدرج ثم يجلس معهما أمام النارجيلة وهما ينظران إليه في صمت.

ربما صمت حسن لشيء لا يفهمه إلا أن حسام كان يعرف جيدا ما يدور في ذهن صاحبه، إنه يحترق بكل ما تحمل الكلمة من معنى في داخله، ولا يستطيع البوح أو الكلام، حينها أراد حسام أن ينتزعه مما هو فيه فقال لحسن:

-عم حسن.. هل لك أن تحدثني عن العمدة عبد الصمد قليلا، زيارة الملك فاروق سهلة البحث لكن جد عبد الله الذي يأبى أن يساعدني بأي شيء عنه أصعب

-(حسن ضاحكا) يا الله العمدة عبد الصمد.. رغم قوته وهيبته لكن ليت كل الرجال مثله يا ولدي سأروي لك عنه

-أريد منك ما جرى من العمدة بعد زيارة الملك

-لم يكن بالجديد يا ولدي، لكنني أذكر جيدا كل شيء بعد ثورة يوليو التي أطاحت بالملك وغيرت كل شيء في الواحات ومصر بأسرها

-حسنا وكلي آذان صاغية

قبل أن نصل إلى الثورة أود الحديث عما أعرفه في الواحات في السنوات التي سبقتها، لقد خفت حدة القوة من كل العمد الذين يحكمون الواحات البحرية إلا عبد الصمد، زاد قوة فوق قوته وبأسا على بأسه حتى صار من المحال أن يصل أحد لما وصل إليه في الآونة الأخيرة، ثم بدأ أولاد سليمان كلهم يعمرون الأرض بعد موت أبيهم،

ولم يكن للخدم والعبيد رحمة أو شفقة كأنها أيام الولاة الأولى تعود ثانية، أو أن الزمن يتكرر فيخلق وحشا كاسرا في صورة العمدة لا يرحم الناس، ربما هلك جد عبد الصمد بأمر الوالي لأنه لم تكن له اليد الطولى ليصل إليه، وكانت الضرائب جد باهظة في وقت باع فيه الناس جلودهم للطعام والشراب، الآن تلغى كل الضرائب التي كانت تدفع، وينتهي عمل الجباة من الواحات ولا يظل فيها إلا الطغاة.

وفي ظل هذا كله يمرض سعد شقيق العمدة عبد الصمد مرضه الأخير، كان العمدة يزوره يوميا يعده بألا يحدث ما هو سيء في الأيام القادمة، تمضي الأيام ويودع سعد آله كلهم راحلا للقاهرة كي يمتثل للشفاء، ليصل سعد وابن شقيقه عبد الصمد للقاهرة، كان سعد يعرف أنه مرض الموت، وأن الموت قريب للغاية، لم يكن يحدث غنيم ابن شقيقه عبد الصمد إلا عن مسعود ولده، ماذا سيصيبه لو قضى سعد نحبه، لم يكن الشاب في صحبته يعرف القول أو يجيد الفعل، وصلا وملك الموت يحدق في وجه سعد مليا، نزلا في أحد الساحات السكنية المرفقة بالغرف في حي السيدة زينب بالقاهرة، وقد أصر سعد رغم كل الألم الذي يحيط به أن يذهب للحضرة المقامة بالقرب من المسجد، لم تكن ظلمة الليل كما في الواحات تعجزهم، الضوء هنا ينتشر في القاهرة فلا تبصر فيها ظلمة ولا تخاف وحدة، وقف أمام الطابور المصطف خارج المسجد والناس يتمايلون والمنشد يقف في

المنتصف بينهم، ابن شقيقه ينقل بصره بينه وبين الطابور ويكاد قلبه يقفز هلعا حين يغمض عمه عينيه بين ثانية وأخرى، تمضي الليلة وقد غلب غنيم النعاس فيضع رأسه على الأرض عمه وينام بقلب مرتجف.

يستيقظ على أذان الفجر فينهض من نومه وينظر ناحية العم، لازال جالسا حتى اللحظة.. حتى بعد انتهاء الذكر والشروع في صلاة الفجر، كان الجو شديد البرودة، كيف له ألا يشعر بذلك، يضع يده على جبين عمه فيراه باردا كالثلج، يتفحصه فيجد أن الروح فاضت في المساء أثناء نومه، هنا على السور الخارجي للمسجد شعر للمرة الأولى أنه وحيد، لا يستطيع البكاء أو الصراخ، لا يقدر على التصرف أو الكلام، كيف سيعود به، الطريق يتطلب أياما ثلاثة وربما أربعة، الرجل لن يحتمل الطريق هذا إن تحركت بالأساس قافلة في هذا اليوم للواحات، ماذا عن والده العمدة الذي أرسله للاعتناء به، ماذا عن كل هؤلاء الذين ينتظرونه.

جاء شيخ المسجد ووقف قبالته وهو يبصر الدمع الذي سال من وجنتيه، لقد لاحظ وجودهما أمام المسجد منذ صلاة العشاء، ويبدو من ملابسهما وهيئتهما أنهما ليسا شحاذين أو فقيرين ضاقت بهم السبل، أدرك الأمر وهو ينظر لعيني غنيم الحمراوتين، أحاله بعيدا عن الجسد الذي مال على جانبه، حملاه إلى داخل المسجد حيث استدعى الشيخ مغسلا، تمت صلاة الفجر ثم صلاة الجنازة على سعد، وعندما

سأل الشيخ عن مدافنهم وأدرك استحالة العودة بسعد للواحات مرة ثانية قررا دفنه في مدافن الصدقة الموجودة هناك.

هكذا ينتهي الأمر بسعد شيخ البلد وابن عمدة القصر، يدفن وحيدا شريدا في مدافن الصدقة بالقاهرة ويعود ابن شقيقه بدونه إلى الواحات، يحمل فوق الحصان ملابسه الخالية كإخوة يوسف حين رجعوا إلى أبيهم بقميصه، لم يكن قميص سعد ملطخ بالدم، بل بالدمع الذي ذرفه غنيم رغم أنفه على عجزه وعلى عمه الذي مضى، شعر أنه قد تركه حيا في المكان، أنه قتل الرجل الذي كان في عز ومجد لا مثيل لهما بالمرة.

قاطعه عبد الله قائلا :

-أي أن جدي سعد دفن في مدافن الصدقة في القاهرة ؟ ألا تعرف أين قبره؟

-لا يا بني.. لست أعرف.. لا أحد الآن يعرف قد مضى على الأمر أكثر من ستين سنة، والناس ينسون الناس في زمن كهذا، فهل تظن أنني استطيع أن أتذكر أو أن أي شخص آخر يستطيع أن يتذكر معالم قبر!

-وماذا جرى منذ ذلك الحين ؟

- تغيرت كل المفاهيم في الواحات البحرية مذ قامت ثورة يوليو التي أطاحت بالملك فاروق في عام ١٩٥٢م، ألغيت كل الألقاب وزالت عن

الناس تلك الهيبة التي كانوا يحتمون خلف هالتها، لم يعد للعمدة السلطة نفسها، لم يعد يستطيع حبس الناس أو الإفراج عنهم إذا أراد، كل شيء في الواحات تغير، وصلت في السنوات الأولى للثورة الكهرباء لمناجم الحديد والصلب التي ظهرت في شمالي شرق الواحات البحرية وصارت هي المصدر الوحيد لإنتاج الحديد في مصر في تلك الآونة، توقف الناس عن زيارة ضريح الشيخ الباويطي وأي ضريح آخر وانقطعت كل العادات الصوفية التي كانت سائدة هناك.

obeikan.com

لفصل الحادي عشر

الطريق إلى القاهرة ٢٠١٤م

أقيمت صلاة الفجر وقد اتخذ كل قراره، وضع حسام الحقائب في السيارة وجلس إلى جوار عبد الله الذي أدار المحرك واتجه ناحية بوابة الباويطي الشرقية، هبط حسام من السيارة ليشتري بعض البضائع والأطعمة للطريق بينما ظل عبد الله ينتظره في محطة الوقود حتى عاد، لقد كان كل منهما معبأ بما لم يكن يسمح له بالكلام مطلقا، تلك الليلة جعلت عبد الله يفكر مليا قبل أن يقرر، إنه أخيرا يختار الحب وينتصر إليه، يقرر الرحيل مع نهاية الشهر مرة ثانية إلى بريطانيا، إلى برمنغهام حيث عاش وحيث اختار القلب واختار هو أيضا أن يعيش.

بينما كان حسام مشغولا بكل المواد التي جمعها في تلك الفترة، يرتب الأحداث والأفكار حسبما رويت له وحسب التاريخ الذي كانت فيه، يحذف بعضها ويفاضل بين بعضها وبعضها الآخر وهو ينتظر أن يتحدث عبد الله إليه بما يجول في نفسه، ومع كثرة الانتظار قرر هو أن يبدأ بمفاتحته في الأمر

obeikan.com

-إلى متى ستظل هكذا صامتا

-ماذا تريد أن أقول ؟

-لماذا تماطل يا صديقي الأمر واضح وجلي، أنت لم تجد ما كنت تبحث عنه هنا فابحث عنه هناك؟

-الحب وحده لا يكفي، ربما لم أخبرك بالأمر.. أتدري عندما روى لنا حسن تلك الحكاية بالأمس عن جدي سعد أصابتني صدمة شديدة، كيف للأمور أن تنتهي بهذا الشكل؟

-أتقصد مدافن الصدقة ؟

-نعم.. أقصد أننا في النهاية سنتساوى مع الغير، كنت أظن في الأرض التي نبتت منها جديد، لا جديد الإنسان هو الإنسان لا يتغير ولا يتبدل مطلقا، كنت أنشد في تلك الزيارة الكثير وأصارحك القول لقد ظننت أنها الشيء الأخير الذي قد يثني العزم عن الرحيل، لكن لم يعد لي شيء هنا، كل الحكايات القديمة تنتهي، أنظر إلى عم حسن، لقد صار شبحا ينتظر الموت بدوره، وحيدا تماما، يخلد للنارجيلة والمذياع في الطابق الأرضي من بيتنا حين يكره الدنيا وما عليها

-ربما لأنه لم يجد من يفهمه؟

-وربما لأنه لا أحد يفهمه بالفعل.. هل رأيت كيف أشرق وجهه حين طلبت منه أن يروي لك شيئا مما يعرفه، وربما لم يستطع أن يروي لك

في الحقيقة ما يفي بالغرض لكنه شعر باختلاف كبير فقط حين وجد من يسمعه

-وأنت تعتقد أنك ستجد من يسمعك هناك

-هنا وجدت كل ما يجبرني على الكلام، لكن لا أحد عاد يرغب في سماع المزيد

لفهما الصمت حتى وصلا للقاهرة ، وحين صار عبد الله وحيدا بعد رحيل حسام انهمر في بكاء متواصل، لم يعد يعرف ما هو المطلوب أو المرغوب لينتهي كل هذا الوجع.

*****

بعد مرور ثلاثة أشهر من ذلك اليوم يفتح حسام بريده الإليكتروني ليجد رسالة تنتظره من عبد الله الذي رحل إلى بريطانيا.. كان مفادها كالتالي :

" صديقي العزيز حسام ..

أتمنى أن تكون في أحسن حال، أولا لن استطيع أن أصف لك قدر السعادة التي تغمرني بعد النجاح المبهر الذي حققته رسالتك عن الواحات البحرية وأقاصيصها، أما عن التكريم الذي نلته فبكل تأكيد أنت تستحق ذلك، فما بذلته كان خرافيا بحق، بالنسبة لي فأنا على خير ما يرام، يمكنك القول أنني أخيرا وجدت ضالتي التي كنت أبحث

عنها منذ زمن طويل، لقد تغير بالنسبة لي كل شيء الآن يا صديقي، عادت فيرجينيا إلي كأنني ما رحلت عنها منذ سنوات، ألم أقل لك أن التاريخ يعيد نفسه من جديد، كما جرى مع سليمان بالضبط صار يجري معي، لقد فهمت الأمر برمته وكنت أفهمه بشكل خاطئ ومغلوط، عم حسن لم يكن يكره ما هو فيه ولا أنا ولا أنت، إننا فقط لا نستطيع أن نميز الأماكن التي تحن أرواحنا لها، ليس التاريخ ما يجذب الناس للأرض، إنما هي الأمنيات التي رغبوا في تحقيقها وسعوا إليها.

لقد عدت للعمل بالصحيفة الموجودة في برمنغهام، تلك التي أخبرتك عنها من قبل، والعمل الصحافي هنا يختلف كثيرا عن مصر، والمصادفة المضحكة أنني صرت مسئولا عن قسم الشرق الأوسط بالكامل، لا مصر وحدها هل تصدق! وعلى أي حال أنا لن أطيل عليك أكثر مما فعلت، راسلني يا صديقي وأخبرني بالجديد"

ابتسم حسام لوقع ما قاله عبد الله وقد اسند ظهره للكرسي وأسبل جفنيه ثم تطلع إلى الصورة الموجودة أمامه على الحاسوب، كانت صورة التقطاها داخل معبد المفتلا شبه المنهار في قرية القصر حين كان الدليل يشير إلى صورة فرعونية نقشت على الجدار عليها رجل يرتدي نعلا وهو يفسر أن علماء الآثار قد عرفوا أنه الحاكم لتميز النقش بالنعل عن غيره، ظل يقلب في الصور بين ساحة أبوشتي وشرقها البركة وشرقها منطقة الزاوية السنوسية، ثم منطقة السور

بالباويطي ومسجد الصفايا والبشمو ومسجد الباويطي.. ثم نظر للصورة وهو ينال تكريمه وقد امتلأ صدره بالزهو.. ابتسم وهو يحدق في الصورة الأخيرة وهو يودع عبد الله الذي قرر الرحيل إلى لندن ليعيد الحب الذي تركه منذ زمن بعيد مرة ثانية، أو ليبحث عن الراحة التي ينشدها.

أمضى الليلة وهو يبصر في التقارير التي قام بها والصور التي جمعها، آلمته صورة مقام الشيخ الباويطي والضريح منهار يسد باب الميضة ولا من يكترث له، يبحث عن كل ما يخص الشيخ الباويطي في الانترنت ثم يبتسم للزمن، من يصدق أن كل هذه الأسطورة تكون نهايتها بهذا البؤس.. بعد أن سميت المدينة باسمه يصبح مصيره ضريحا منهارا يأنف الناس ترميمه.

وبينما هو يقلب في المقاطع التي التقطها والصور التي نالها وقعت يده على أحد حفلات الزفاف بالباويطي، دعاه عبد الله لحضورها كي يسجل الحدث، كانت وجبه الغذاء للرجال والعشاء للنساء في صيوان يسد الشارع بأسره، يقدم الطعام في الأفراح على مرحلتين، في الأولى يوضع الخبز مع الخضروات، ثم يتبع بالثانية وهو الأرز الذي يميز أهل الواحات دون غيرهم مع اللحم، يجلسون في حلقات لا يزيد عدد الواحدة منها على سبعة رهط، وبعد إطعامهم ينتقلون لاحتساء الشاي الذي يقدم أيضا على دفعتين للناس، النكهة الأولى من الشاي النقي

والثانية من الشاي المحلى بالسكر والنعنع الجبلي.

يهل المساء فتقام حفلات السمر والتي تلقى فيها الأغاني الشعبية السائدة التي أنشده عبد الله شيئا منها، وبينما هو يقلب في أغراضه يتذكر تلك الورقة التي سجل فيها رقما لأحد الإخباريين الذي أعلمه بمعرفته المزيد مما يريد، ومما لم يعلمه في الزيارة الأولى أو يسعفه الوقت لإخباره به، ربما يفكر حينها في زيارة أخرى.

تمت بحمد الله

القاهرة – أكتوبر ٢٠١٦م

obeikan.com

المؤلف في سطور

- علاء محمد عبد الناصر محمد
- مواليد نوفمبر ١٩٩١م بالواحات البحرية قرية الباويطي
- تخرج في المعهد العالي للدراسات النوعية قسم اللغة الإنجليزية يونيو ٢٠١٢م
- درس الصراع بين الفلسفة والشعر في الحضارة الإغريقية ممتدة إلى عصر النهضة بانجلترا.
- كتب مقالات متنوعة في عدة صحف ومجلات إلكترونية باللغة الإنجليزية والعربية
- يعمل موظفًا بشركة راية لخدمات الاتصالات
- شارك في مسابقة توفيق الحكيم للمسرح في دورتها الثانية عن مسرحية القيصر
- صدرت له رواية "هيلجا" عن دار إبداع في معرض القاهرة الدولي للكتاب يناير ٢٠١٦م

للتواصل مع المؤلف

alaa.ala58@yahoo.com

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com